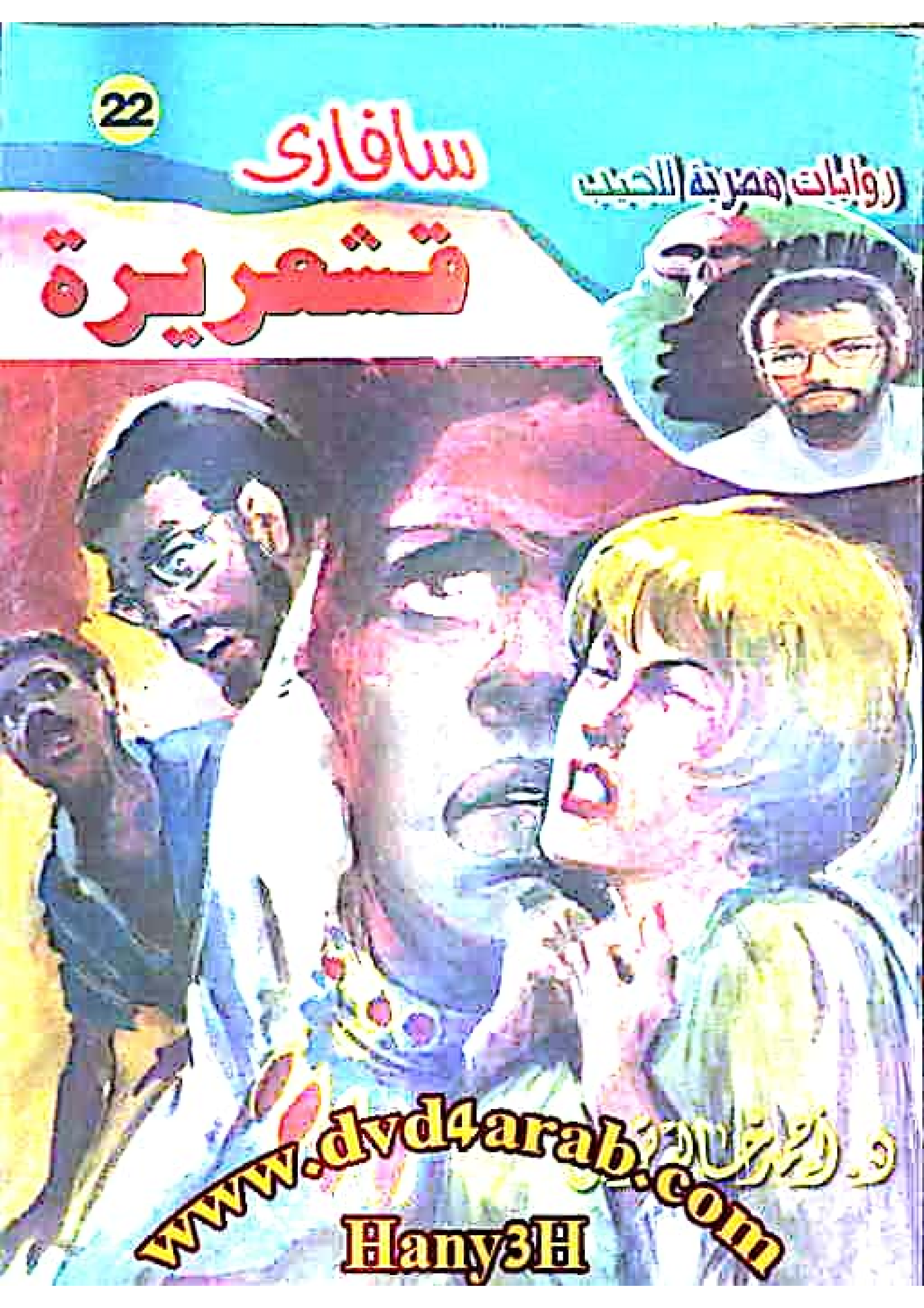

22
سافاري
روايات مصرية للجيب
قشعريرة
د. أحمد خالد

مقـــدمـة

(سـافارى) مصـطلح غربى تـم تحريفه عن كلمــة (سافريّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عـن رحـلات صـيد الوحـوش فى أدغــال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سـافارى) التـى سنقابلها ها هنا كـانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنـا الـذى سنقابله دومًــا ، ونألفــه ، ونتعلـم أن نحبه هـو د. (عـلاء عبـد العظيـم) .. شـاب مصـرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاتـه بعيـدًا وسـط أدغال (الكاميرون) ، وفـى بيئـة غريبــة وأمــراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفـى هـذه الروايـات نقرأ مذكرات د. (عــلاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضــارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

١ ـ الحياة تستمر ..

قال (ماسومو) وهو يرتجف من الرعب كعادته :

ـ « ليس أمامك من سبيل إلا أن تستمر .. الحق أقول لك إن الاستمرار يحمل الهلاك الأكيد ، لكن البقاء حيث أنت معناه موت لا مناص منه .. »

فكرت فى كلامه فوجدت أن خياراتى واسعة فعلاً ..

أحب هذه الخيارات المفتوحة التى تعطينى حرية لاشك فيها ..

كان الليل الإفريقى قد جاء حاملاً (الباليتة) الخاصة به والتى لاتحوى إلا لونين : الأسود والأزرق .. وقد بدأ يلون كل شىء من حولنا بهما .. رائحة عباءته العطرة تحيط بنا ، وأنفاسه الباردة قليلاً تهب على وجهينا ، حيث وقفنا ننتظر قرارى الصحيح ..

وكان قرارى ـ الذى ليس صحيحًا بالضرورة ـ هو أن أستمر ..

إن القبور تزخر بالشجعان كما قالوا ، وأنا أكره أن أبيت فى قبر آخر ، لكن لا خيار لى ..

سأستمر ..

* * *

مازلت فى (كينيا) ..

يبدو أن هذا صار معتادًا حتى نسيت أننى يومًا ما كنت فى الكاميرون .. الحقيقة أننى مازلت ترسًا جديدًا خشنا لم يتأقلم على حركة التروس الأخرى من حوله ، أو كما يقول أى حرفى فى ثقة : يطبّع (بتشديد الباء) ..

لكن كل يوم يجعلنى من أهل الدار أكثر ، وقد بدأت أحب البعض ويبدأ البعض يحبوننى لشدة العجب ..

والأهم أننى عرفت عن نفسى ما هو أكثر : أننى أثير المتاعب أو تثيرنى المتاعب حيث حللت ، وهو شىء

مريح حين تتأقلم على هذه الحقيقة وتدركها يقينا .. هذا يبعث السلام فى النفس .. أنا ألعب طينة حياتى دور الحجر الذى يلقى فى الماء فيجعله يضطرب ، ويتبعثر فى دوامات متصلة .. صحيح أن شيئا لن ينجم عن هذا ، لكنه على الأقل يكسر الملل ، وسل عن هذا أى صبى يجلس على نهر ليلقى فيه ببعض أحجار ..

تعرفون بالطبع أننى تزوجت (برنادت) ، وهو ـ على ما أعتقد ـ أهم ما فعلت فى حياتى حتى اليوم ، فقلما أردت شيئًا بشدة ونلته .. الحقيقة أن العكس هو القاعدة .. فقط أردت القول إن مصيرينا توحدا وأننى حين أتكلم عن نفسى فأنا أعنى (نحن) .. و(نحن) هذه مثنى إلى أن تتحول إلى صيغة جمع يومًا ما ، وهو يوم يملؤنى فرقًا وتوترًا .. تصوروا أن أكون أبا ! وأين ؟ فى قلب إفريقيا الاستوائية .

على كل حال نحاول تأجيل هذا الموضوع إلى يوم نعود إلى وطننا الثانى فى الكاميرون ..

اغفروا لى ثرثرتى .. لكن لابد أن أخبركم بأخبارى

من حين لآخر .. فأنا لست آلة مغامرات ولست بالتأكيد (جيمس بوند) الذى يطلق الرصاص ويركب السيارات السريعة من أول إلى آخر صفحة فى قصصه .. أنا إنسان بعد كل شىء .. إنسان يمرض وينام ويتثاءب ويمر بتجارب تستأهل السرد من آن لآخر .

* * *

قال لى (سينوريه) :

ـ « يبدو أنك صرت خبيرًا بداء (كالا آزار) .. »

لم أدر ما أقول ، فهززت كتفى وبعد قليل غمغمت :

ـ « لو لم أفعل لكنت حمارًا .. إننى لا أفعل شيئًا آخر منذ جئت إلى (كينيا) .. كأن العالم خال من أية أمراض أخرى .. »

ابتسم وواصل رسم لوحته التى تقلد أسلوب (روبنز) وقال :

ـ « لاتدع هذه الفكرة تفسد حياتك .. لابد من أن تخوض كل تجربة تمر بها إلى الحد الأقصى .. بعد

هذا تتراكم التجارب فى خزانة ذاكرتك ، ويومها تصير ذلك المخلوق السحرى (خبير الأوبئة) .. »

ومن قال إننى راغب فى أن أصير خبير أوبئة ؟ أنا جراح ولا أرى نفسى على أى ضوء آخر .. جراح يرغمونه على أخذ عينات الدم من القبائل ، وقراءة دورة حياة طفيل الـ (ليشمانيا) أنا الذى لم أطق دورات الحياة فى حياتى ، ومنذ كنت فى المدرسة الإعدادية حين كنت أقلب الصفحة بمجرد أن أرى التخطيط الدائرى الشهير الذى يبدأ بالإنسان وينتهى به ..

واصل (سينوريه) سؤالى :

ـ « متى تعود إلى الكاميرون ؟ »

قلت فى شرود :

ـ « حينما يطلبوننا .. وأحياناً يخيل إلى أن الأمور ستظل كما هى .. يبدو أنهم كانوا متلهفين على الخلاص منا هناك .. »

ابتسم وقال فى خبث :

ـ « المدير هنا لا يطيقك كما تعلم ويتوق للحظة الخلاص .. »

ـ « الشعور متبادل لحسن الحظ .. »

ـ « يطلق عليكما اسم (ثنائى ياوندى) .. وهو يشعر بأنكما جسمان غريبان ستظل الوحدة مريضة إلى أن تتخلص منهما .. »

لم تكن (برنادت) فى قائمة المغضوب عليهم لدى المدير ، لكن زواجنا جعلها (أنا) أخرى .. بالأحرى صار الرجل يعتبرنا شيئًا واحدًا بغيضًا ، وعلى كل حال هذا لا يضايقنى فى شىء ما دام بيننا سلام .. والسلام لا يعنى الحب ..

هكذا كانت حياتى تمضى ..

وكما تعرفون كنت أستريح فى الوحدة يومًا .. ثم أنطلق لجمع المعلومات الميدانية والعلاج تحت الشجرة يومًا آخر .. وكان هذا يضايقنى لأننى صرت بعيدًا جدًا عن كافة التخصصات وعن غرفة الجراحة الحبيبة .. صار داء (كالا آزار) يطاردنى فى كل

مكان وفى أثناء النوم وفى الحمام وتحت ملاءتى .. وصرت أحفظ تفاصيله عن ظهر قلب وأشم مريضه على بعد عشرة أمتار ، برغم أنه ليس من الأمراض ذات الرائحة كالتيفود والتيفوس والفشل الكبدى ..

هكذا كانت الحياة تمضى ..

حتى حدثت لـ (برنادت) واقعة غريبة بعض الشىء ..

* * *

كان هناك طفل مريض ..

أعرف أن هذا ليس خبرًا بالنسبة لعيادة الأطفال ، فهناك دائمًا واحد .. فقط أردت القول إنه كان هناك طفل مريض بالذات وهذا الطفل كان فى أسوأ حال ..

كانت معه أمه .. ولو كانت حالة الطفل أفضل ، لتمكنت (برنادت) من النظر إلى المرأة بدهشة .. إنها من ذلك الطراز العجيب الذى نسميه نحن فى مصر (مجاذيب) .. ثيابها غريبة جدًا وقد غرست فى

شعرها الكثير من الريش الملون ، وغطت صدرها بالعقود الملونة ، وعلقت فى أذنيها طنًا من الأقراط الخشبية التى تستطيل لها شحمة الأذن حتى لتوشك على التمزق .. يدا المرأة مخضبتان بلون أحمر كريه يوحى بأنه دم برغم أن هذا غير ممكن .. إنها من (الكيكويو) .. هذا واضح .. لقد رأت هذين القرطين العملاقين فى آذان الكيكويو كثيرًا .. كما أن رائحة بول الأبقار هذه لايمكن ألا تميزها .. قلنا إن الكيكويو يتضمخون بهذا العطر لأنهم يحبون أن يظفروا بحب الأبقار ورضاها ، وهذا لا يجلب الكثير من حب البشر طبعًا ، لكنهم لايريدونه على كل حال ..

كان من السهل على (برنادت) أن تستنتج أن هذا القرد الصغير الذى يعوى كالجحيم مصاب بالتهاب رئوى .. مع قدر لابأس به من المياه فى صدره .. أوما يسميه الأطباء بـ (الانسكاب البلورى) .. هذا واضح تمامًا ولايحتاج إلى أشعة .. فلندخر الوقت إذن ..

كان التفاهم مع المرأة ممتازًا .. فهذه ترمقها

بكراهية وشك وعينين متسعتين ، بينما (برنادت) ترمقها بخوف وتوجس .. وكان المترجم ـ وهو الممرضة هنا ـ ينقل بعض الكلمات بين الطرفين ..

بيد محترفة أعدت (برنادت) المحقن الذى ستأخذ به عينة من ذلك السائل فى صدر الطفل .. ساعدتها الممرضة على تطهير موضع الإبرة .. الأم تنقل نظرات الشك الخرساء بين الاثنين ، وهو شك يوشك على أن يتحول إلى اتهام صريح فجنون ..

كان هذا يجعل (برنادت) عصبية إلى حد ما ..

ـ « قولى لها إنه لابد من التأكد .. أنا أحاول أن أقوم بعملى .. »

قالتها للممرضة وهى تحاول تثبيت وضع الغلام لتغرس المحقن ، فنقلت تلك الأخيرة الكلمات بلهجة روتينية رتيبة إلى الأم . واحتجت تلك الأخيرة فى وهن ثم صمتت وراحت تراقب المشهد ..

ـ « هكذا .. هكذاااااا ! »

وانغرست الإبرة فى الجلد الذى صار لونه برتقاليًا بفعل المطهر ..

لم يستغرق الأمر وقتًا .. لا أعنى سحب العينة طبعًا ..

أعنى أن الغلام أطلق شهقة معذبة طويلة ..

ثم مات ..

* * *

٢ ـ فيما عدا ..

فيما بعد حاول (ستيجوود) الوغد ـ وهو المدير كذلك ـ أن يجد أى خطأ فيما فعلته فلم يجد .. صحيح أنها كانت تبكى كإسفنجة وراح خليط من الدموع وإفرازات الأنف يغطى وجهها .. صحيح أن من يبصرها كان يحسبها قاتلة (كنيدى) ذاته .. لكنها لم ترتكب أى خطأ من أى نوع .. الإبرة لم تخترق صدر الغلام أصلاً ..

هذه وفاة مفاجئة اختارت التوقيت الخطأ لا أكثر ، وما أكثر أسباب الموت فى حالة كهذه الحالة المهملة ..

ولكن (برنادت) لاتطيق الموت .. موت الأطفال بالذات ..

وقد كان على الوحدة أن تشرح جثة الغلام لمعرفة سبب الوفاة الحقيقى ، لكن الأم المفترسة لم تعط أحدًا أية فرصة ..

لقد اتسعت عيناها وهى ترمق الجثة المتصلبة لصغيرها ..

وقفت مستندة إلى الجدار ، وهى ترمق محاولات التنفس الصناعى بالفم تقوم بها (برنادت) .. ثم ترى فريق الإحياء التنفسى والقلبى CPR يهرعون إلى الحجرة ، ليقوموا بتلك الحركات التى نراها فى الأفلام الأجنبية .. يثبتون جهاز (أمبو) للتنفس الصناعى على الوجه ، ويحقنون أشياء فى صدر الغلام .. و .. و ..

كل هذا لم يكن ذا جدوى ..

فى اللحظة التالية وكأنما فرغت من مشاهدة هذا السيرك ، أخرجت الأم حرامًا مزركش الألوان ، فلفت فيه جثمان الطفل فى غير عناية ، وحملته على كتفها ..

اتجهت عيناها إلى (برنادت) ..

المرعب أنه لم تكن فى عينيها دمعة واحدة .. لوم يرتسم على وجهها أى نوع من الأسى ..



أخرجت الأم حزامًا مزركش الألوان ، فلفت فيه جثمان الطفل فى غير عناية ، وحملته على كتفها ..

فقط همست وهى تنظر لها شيئًا ما بالسواحلية .. همست به مرة .. ثم مرةً أخرى ..

واستدارت مبتعدة ..

ولم تكن (برنادت) فى حال تسمح لها بفهم ما قيل ، لأنها كانت أشبه بعود من المكرونة تم سلقه بعناية .. وكأنها (سطيح بن ربيعة) الكاهن الذى كان العرب يحكون أسطورته ، والذى لم يكن فى جسده عظام لذا كان يطوى كما يطوى الثوب ..

فقط نظرت لمن حولها فرأت فى عيونهم الإشفاق والرهبة ..

* * *

كانت تلك أسود ليلة فى حياتى .. إن كثيرًا من ليالىَّ سوداء ، لكن هذه أول ليلة يكون علىَّ فيها العناية بشخص فى حالة انهيار عصبى ..

كانت ترجف كورقة ، وقد وضعت عليها طنًا من الأغطية وأعددت لها مشروبًا ساخنًا ، وكانت ترفض

بعناد أخذ قرص مهدئ لأنها تخشى أن تكون حاملاً ونحن لا نعرف .. لذا دسسته لها خلسة في المشروب ..

قالت لى وهى تمسح أنفها الأحمر :

ـ « أترانى اقترفت خطأ ما ؟ »

قلت لها فى نفاد صبر :

ـ « هذا هو التزيد بعينه .. قلت لك للمرة الألف إننى لا أرى أى خطأ فى هذا .. وأنت .. تملكين من الحصافة ما يمكنك من الحكم بنفسك .. »

ثم أضفت فى ضيق :

ـ « ألم ترى احتضار مريض من قبل وأنت طبيبة ؟ »

قالت وهى تمسح عينيها هذه المرة :

ـ « ليس الأطفال .. ليس الأطفال .. من الطبيعى أن يموت الكبار ويعيش الأطفال .. هذا ما أعرفه .. »

ثم أضافت :

ـ « لو رأيت نظرة الأم لى .. كأنها تقول : سألتكم ألا تفعلوا لكنكم تظاهرتم بالعلم والعبقرية .. »

ـ « وماذا قالت لك بعدها ؟ »

ـ « لا أدرى .. كانت تتكلم السواحلية .. لكن لايتطلب الأمر خبير لغات إفريقية كى تعرف .. طبعًا كانت تتهمنى بالإجرام وتتمنى أن ألحق بابنها فى أقرب وقت .. »

كانت تتكلم ورأسها يتأرجح على كتفها ، وكلامها يزداد ثقلاً .. فبدت كأنها طفلة تخشى الظلام .. واهنة ضعيفة هشة تحتاج إلى الحماية فهل أستطيع ؟

الآن تغلب القرص المهدئ على أحزانها فبدأت تغط فى نوم عميق .. وهنأت نفسى على ما قمت به ، واندسست تحت الغطاء دافنًا يدى لأتقى برد الليل الإفريقى المخيف ، وفتحت كتاب (إيسلباشر) على حجرى لأقرأ قليلاً قبل أن أنام ..

الآن أتذكر ذلك الكاتب الأمريكى الكفيف الذى كان يقرأ بطريقة (برايل) .. قال إن أجمل ما فى الحروف البارزة هى أنه يدس كلتا يديه تحت الغطاء الدافئ ، فلا يحتاج إلى إخراج يده للبرد من حين لآخر ليقلب الصفحة !

مهما كلمتنى عن الأقراص المهدئة والمنومة ، فإن صفحة واحدة من هذا الكتاب تؤدى معى أثر ألف قرص من تلك الأقراااااا ....

خ خ خ خ خ خ خ !

★ ★ ★

فى الصباح قالت (برنادت) وهى تتمطى :

ـ « أنا بخير .. »

حقًا كانت يانعة نضرة .. ونظرت لوجهى أنا فى المرآة فوجدت أننى أبدو كالمصيبة .. يبدو أننى مضح أكثر ما توقعت حتى إننى أمرض بدلاً منها ..

وأردفت (برنادت) بعد صمت :

ـ « لكنى .. »

ـ « نعم .. لكنك لست راغبة فى الذهاب للعيادة .. هذا مفهوم على ما أعتقد .. »

ـ « إذن ؟ »

ـ « نعم .. سأبلغ (ستيجوود) .. يعلم اللّه أننى أفضل بدء يومى مع ثعبان كوبرا .. لكنى سأفعل .. »

وارتديت ثيابى على عجل ، وارتديت المعطف .. كان هذا من الأيام التى لا أتشرد فيها فى القرى .. ومعنى هذا أننى فى إجازة .. لكن علىّ برغم كل شىء أن أذهب إلى قسم الجراحة بحثًا عن عمل .. على أمل أن يصاب أحد مساعدى الجراحين بجلطة مخية أو سكتة قلبية عندئذ لايجدون سواى ..

أنهيت التفاهم مع ثعبان الكوبرا الذى يبدو كالبشر ، ثم اتجهت إلى قسم الجراحة ..

وكانوا هناك منهمكين كأنهم فى سلخانة .. الكل ينزع ثيابه والكل يرتديها ، والكل يجرى إجراءات التعقيم ، والكل يتكلم .. الحقيقة أنه لم يكن لى دور معين كما هو واضح اليوم ..

ولاحظ جراح عظام بريطانى أننى جالس من دون عمل ، فقال لى وهو يغسل ساعديه بالفرشاه :

ـ « هل تريد المشاركة أيها الشاب ؟ »

أشرت إلى صدرى بما معناه : أتمنى ..

ـ « إذن ماذا تنتظر لتبدأ التعقيم ؟ إننا سنستبدل رأس عظمة الفخذ لدى تلك المرأة العجوز .. »

لم أكن شاركت فى جراحة مماثلة كهذه ، لذا سارعت بالتعقيم قبل أن يغير رأيه .. طبعًا كان لديه مساعد ومساعد كفء .. لكنه لم ير أن وجود مساعدين سيفسد الأمور ..

دخلت غرفة العمليات حيث كانت المريضة العجوز راقدة مغطاة بالملاءات فلا يظهر منها إلا موضع

الجراحة ، وقد اكتسب الجلد لونًا برتقاليًا زاهيًا بفعل المطهرات .

بعد دقيقة كان الجراح البارع قد كشف عن رأس الفخذ بأربع ضربات بالمبضع ، ربما أسرع مما استطعت ملاحقته لتجفيف الدماء ..

هنا دنا أحدهم منى وقرب فمه من أذنى من الخلف :

ـ « دكتور (عبد العظيم) .. هناك من يريدك .. »

للحظة تذكرت فترة الامتياز فى مصر .. فى المعتاد كان هذا القادم يخبرنى بأن ابن خالتى أو أى واحد من قريتنا ينتظرنى بالخارج ، لكنى استبعدت هذا الاحتمال هنا ..

ـ « يبدو أن الدكتورة (جونز) ليست على مايرام .. »

(برنادت) ؟ هذا آخر شىء توقعته ..

أجفلت وتأهبت للحاق به بحركة سريعة ، لكن جاء صوت الجراح الصارم من وراء قناعه :

ـ « حيث أنت ! »

ثم أضاف فى ثبات :

ـ « أما وقد بدأت الجراحة فلن أسـمح لك بـالانصراف إلا ميتًا أو فاقد الوعى .. لا مزاح هنا ! »

وهكذا عدت للعمل شاعرًا بمزيج عبقرى من الهلع والارتباك والخجل والقلق .. وبالطبع كانت هذه أطول جراحة ساعدت فيها فى حياتى .. لابد أن مائـة عـام انصرمت وأنا واقف هناك ..

فى النهاية بدا أن القلب البريطانى البارد رق لى ، فقال :

ـ « الآن صار الوضع أفضل .. يمكنك الانصراف .. »

وهرعت أغادر الغرفة فالقسم .. وفـى الطريق نزعت قفازى وثياب الجراحة وارتديت ثيـابى العاديـة .. ثم ركضت إلى المسكن حيث نقيم متوقعًا الأسوأ ..

كانت الغرفة مفتوحة .. توقعت هذا وخشيته كثيرًا ..

لكنى إذ دخلت واجف القلب لم أر تلك الوجوه الشـاحبة الملتاعة التى كنت أخشى أن أراها .. كانت هنـاك طبيبـة

كندية باسمة صبوح الوجه تجلس على طرف الفراش ، ومشرفة تنظيف الطابق .. وكانت (برنادت) فى الفراش شاحبة قليلاً لكنها تبتسم بدورها ، وقد خمنت ما أردت أن أراه ..

ـ « مـ .. ماذا حدث ؟ »

قالت الطبيبة الكندية :

ـ « لا شىء .. لقد كانت متوعكة وانتهى الأمر .. بعض مضاد الهستامين والكورتيزون »

ـ « متوعكة بأى شىء بالضبط ؟ »

قالت (برنادت) وهى ترفع الغطاء حتى عنقها :

ـ « قشعريرة .. هذا كل شىء ! »

* * *

٣ ـ نوبات تتكرر..

قالت (برنادت) :

ـ « بعدما انصرفت أنت قررت أن أعـاود النـوم بعض الوقت .. أنا لم أظفر بالنوم صباحًا منذ أعـوام ، وكانت الفـكرة فى حد ذاتهـا ممتعـة .. لكن بعد قليل فطنت إلى أن أسنانى تصطك .. غريب هذا ! ليس الجو باردًا إلى هذا الحـد .. أضفت المزيد من الأغطيـة ، لكن القشعريرة ازدادت قسوة .. فـى النهايـة وصلت إلى حد أننى صرت أرتجف كورقة فى مهب الريـح .. كانت الغرفة كلها ترتج ، وراح باب الخزانة يئن كأننا فى زلزال .. »

كنت أنا أفكر فى كلامهـا .. القاعدة القديمة هى أن الرجفة التى تهز المريض تكون ناتجة عن الإنفلونـزا أو صدمة عصبية .. الرجفة التى تهز المريض والفراش

هى صديد فى مكان ما من جسده .. الرجفة التى تهز المريض والفراش والغرفة هى ملاريا .. قاعدة قديمة كثيرًا ما تصدق ، لكنك لن تجد أطباء كثيرين يؤمنون بها كوسيلة لتشخيص الملاريا ..

تواصل (برنادت) الكلام وهى ترمش بأهدابها السلجية :

ـ « لما وجدت الأمر أسوا مما تصورت فتحت الباب ، وكانت المشرفة هناك لحسن الحظ .. طلبت منها العون وأن تبلغك .. »

ـ « وجاءت صديقتك الكندية لتفترض أن الموضوع حساسية بشكل ما .. »

قالت الكندية وهى تتابع محادثتنا :

ـ « لا أدرى إن كنت على حق أم لا .. لكن الرجفة انتهت بسرعة .. ربما بمجرد أن أفرغت محقنتى .. »

ثم نهضت وابتسمت ابتسامة من نوع (أية خدمة أخرى ؟) فشكرتها كثيرًا .. وسرعان ما صرنا وحدنا أنا و(برنادت) .. قالت وهى تبتسم :

ـ « عسى ألا يكون هذا حملاً ! »

ابتلعت ريقى وسألتها فى تدقيق :

- « وهل يوجد احتمال أن يكون هذا حملاً ؟ »

- « كانت أمى تعانى الرجفة فى حملها .. لا تنس أن الحامل تتعامل مع الجنين فى البداية كجسم غريب يثير الحساسية .. ويحاول جسمها أن يلفظه بالقىء والغثيان .. ربما بالرجفة .. »

شعرت بكثير من قلق .. ليس الوقت مناسبًا لهذا .. ليس مناسبًا على الإطلاق ، والحقيقة أننى كنت أرى نفسى صبيًا مشاغبًا مازال يتعلم ، فكيف أكون مسئولاً عن تربية طفل حقيقى ؟

قلت لها وأنا أنتزع الشعرة السابعة من لحيتى :

- « هل مازلت تتعاطين أدوية الوقاية من الملاريا ؟ »

- « كففت عنها من زمن .. قلت لك إننى أخشى الحمل .. »

- « هذا هو الجواب .. »

ونهضت شاعرًا بالانتصار :

ـ « أنت مصابة بالملاريا .. »

قالت فى ضيق وهى تحك شعرها مفكرة :

ـ « ربما كنت أفضل الحمل على احتمال كهذا .. »

وعلى كل حال يجب القول إننا نسينا الموضوع برمته فى الساعات التالية .. رجفة جاءت وذهبت ولا يوجد ما يدعو إلى الشك بأنها قد تتكرر ..

ثم إن النساء هستيريات .. أليست كلمة (هستيريا) مشتقة من كلمة (رحم) ؟ من الطبيعى أن تصاب (برنادت) بعرض هستيرى بعد خبرتها المؤلمة أمس ..

لقد تعودت أن أفكر مرتين قبل أن أنظر باحترام إلى تلك الأغراض النسائية الغامضة ..

* * *

فى المساء بدأت (برنادت) ترتجف ثانية ..

كنت أشذب لحيتى أمام المرآة حين سمعتها تستغيث ..

هرعت إلى الغرفة لأجدها فـى الفـراش تنتفـض .. شفتاها ترتجفـان كأنمـا يتصـلان بمصـدر للكهربـاء الجالفانية ، ثم زحفت الرجفة على كتفيها وذراعيها .. وببطء إلى الفراش ..

قلت وأنا أجفف الصابون عن وجهى :

ـ « رباه ! ماذا أفعل لك ؟ »

الآن راحت أرضية الغرفة تهتز كما لو كان زلـزال يعلن عن نفسه فى حياء ، ثم فى عنف ..

كانت تنتفض بسرعـة وعنـف حتـى إننى لم أعـد قادرًا على تبين ملامحها .. وتحولت كلماتها بدورها إلى اهتزازات :

ـ « أنـ .. أنـ .. ا .. ا .. ا .. ا .. لـ .. ل .. ا .. أ .. د .. ر .. ر .. ر ..... »

ملاريا ! هكذا قلت لنفسى ثم غادرت الغرفة أبحث عن (سينوريه) .. (سينوريه) الذى يلعب فى (كينيا) دور (شيلبى) فى الكاميرون .. طبعًا لست بالغبـاء الذى

يمنعنى من تشخيص فعلاج حالة ملاريا ، لكن ما من طبيب يظل طبيبًا مع أهله .. إن تلك البقعة الشاحبة من نقص الثقة فى النفس تتضخم .. تنتشر .. ماذا لو كنت مخطئًا ؟ ماذا لو كنت أحمق ؟

وجدته فى غرفته يتسلى ـ كالعادة ـ بمحاولة تقليد الرسامين الفلامنكيين .. قلت له بصوت متهدج :

ـ « (برنادت) .. رجف .... فه .. »

وضع الفرشاة جانبًا وجفف يديه ثم لحق بى ..

طبعًا من الواضح أن (برنادت) كانت فى خير حال حين وصلنا إليها .. هذا شىء متوقع على كل حال .. كانت جالسة فى الفراش مرهقة قليلاً لكنها تضحك ..

قالت لى فى بساطة :

ـ « هل رأيت ؟ انتهى الأمر .. »

ـ « لا .. لم ينته .. »

قال (سينوريه) وهو يحك رأسه الغريب الذى يعلو عوده النحيل المهتز :

ـ « لو كان وصفك صحيحًا فلا أرى ما يمنع من إجراء اختبارات الملاريا .. وإن كان غياب ارتفاع الحرارة والعرق محيرًا إلى حد ما .. هل أنت متأكد من أنه لا توجد عقارات ما ؟ »

قلت له فى نفاد صبر :

ـ « كنت أكلمها .. ثم حدث هذا .. حدث بشكل تلقائى .. »

ـ « هم م م م ! »

وطبعًا كانت (هم م م م) هذه هى قائمة من الفحوص أجريت على دمها فى الليلة ذاتها أولها وليس آخرها البحث عن طفيل الملاريا فى فيلم ثخين وفيلم رقيق ثم الاختبارات المناعية ..

وفى الحادية عشرة مساءً اتصل بى فى الغرفة وقال :

ـ « لا يوجد شىء .. إنها تملك المناعة ضد الملاريا لكنها ليست مصابة بها .. »

- « إذن ما تفسير الرجفة ؟ »

- « أى شىء غير الملاريا .. »

ثم أضاف بعدما لاحظ عدم اقتناعى :

- « سنفحص كل الاحتمالات الممكنة .. هناك قائمة لابأس بها طلبتها من المختبر ، كما أن بوسعك فحصها بالأشعة غدًا لاستبعاد وجود صديد فى مكان ما .. لكن غياب ارتفاع الحرارة يقلقنى .. »

- « لا يقلقنى أنا .. »

قال فى ضيق :

- « لا تؤاخذنى .. أنا لا أفكر كزوج محب لكن أفكر كطبيب .. كل ما لا أجد له تفسيرًا يملؤنى قلقًا ورعبًا .. »

- « أعرف .. أنت تفضل أن تكون مصابة بالسرطان وتتأكد أنت من هذا لتطمئن .. هذا يناسبك أكثر .. »

قال وهو يتنفس الصعداء :

- « أنت تتكلم بلسانى وكنت أخشى أن تحسبنى فظا !

لو لم نجد أى تفسير مادى فمن الواجب علينا أن نعتبرها مجرد صدمة عصبية .. »

ـ « والسبب ؟ »

ضحك ضحكة خفيفة وقال :

ـ « أنت أدرى بهذا .. إن الغرف المغلقة تحوى من الأسرار الكثير .. لربما كنت أنت وغدًا وشيطانًا زنيما لكنك تجيد التظاهر بالعكس أمامنا .. »

ـ « ثق أننى لم أحرق وجهها بالملعقة الساخنة هذه الليلة على الأقل .. »

ـ « هذا ما سنعرفه .. »

* * *

فى الصباح عاودت نوبة القشعريرة (برنادت) ..

وكانت أعنف من كل نوبة سابقة ..

* * *

٤ـ والسر يبدو عسيرًا ..

قال (ماسومو) وهو يرتجف من الرعب كعادته :

ـ « ليس أمامك من سبيل إلا أن تتوقف .. الحق أقول لك إن التوقف يحمل الهلاك الأكيد ، لكن الاستمرار صار أخطر مما يمكن وصفه »

فكرت فى كلامه فوجدت أن خياراتى واسعة فعلاً ..

كان الفجر قد دنا حاملاً ألف احتمال واحتمال ..

وكان قرارى ـ الذى ليس صحيحًا بالضرورة ـ هو أن أتوقف ..

* * *

كان يومًا تعسًا بحق ..

لا داعى لذكر أننى لم أذهب إلى عملى الميدانى مع (كالا آزار) فهذا معروف ..

تذكرت ـ ولأسباب جلية ـ تلك الأيام السوداء التى كنت أجول فيها بـ (برنادت) كأننى أتسول بها ، حين كانت ترى وجوه الموتى المحتضرين فى كل صوب ..

مرة أخرى يبرهن الطب على عجزه .. لا أحد يدرى ما يجرى هنا .. آراء آراء .. وقد جاءت الفحوص كلها تؤكد أن جسدها سليم تمامًا وأن ما يحدث ليس له من تفسير إلا عصبية بولغ فيها ..

قال لى (سينوريه) باسمًا وهو يتفحص النتائج :

ـ « كما قلت لك .. أنت شيطان يتظاهر بأنه ليس كذلك .. حين ينغلق عليكما الباب لا تكف عن تعذيب هذه البريئة وركلها .. »

فى عصبية قلت :

ـ « ربما .. لكنها فى خير حال .. »

ـ « كل الأزواج يقولون هذا حين تسألهم عن أعصاب زوجاتهم .. »

كان هذا هراء كله .. فـ (برنادت) سعيدة أو على الأقل ليست تعيسة ، وقد سألتها عدة مرات فكانت تردد بطريقتها الغربية غير المسرفة فى التأكيدات :

ـ «أنا على ما يرام .. من السخف أن أكون أفضل ..»

على أن النوبة تكررت فى السابعة مساءً ، وكنا فى مكتب المدير نطلب منه أن يسمح لها بإجازة ، وكان على وشك أن يقول لنا : أنتما تهرجان أيها الشابان .. لسنا فى مؤسسة خيرية لو لاحظتما هذا ..

نعم كان على وشك أن يقول هذا حين بدأت (برنادت) ترتج .. أسنانها تصطك .. المقعد ذاته يرتج .. ثم بدأ كل شىء فى الحجرة يئن ويصدر صريرًا ..

وامتقع وجه (ستيجوود) ـ حقًا لا تمثيلاً ـ وارتج عليه فلم يدر ما يقول ..

قال لى :

ـ « ولكن .. هناك مشكلة ما .. لكن .. هذه مريضة جدًا .. »

أدركت أن فرانصه ارتعدت فهو لم يمارس الطب الإكلينيكى منذ قرون ، وقد جعلته الإداريات ينسى كيف يبدو المرضى ..

قال لى وهو يلتصق بالجدار كى لايصيبه ما أصابها :

- « خذها واجعلها تستريح .. هه ؟ تستريح .. (سينوريه) .. لماذا لاتأخذ رأى (سينوريه) ؟ إنه جيد .. نعم .. الرجل جيد .. »

وهكذا أخذت (برنادت) عائدًا إلى غرفتنا وكانت قد تحسنت كثيرًا كالعادة ..

إن هذه النوبات لاتستغرق أكثر من خمس دقائق .. هذا جلى .. ومن الواضح حتى الآن انها حميدة ، وإن بدأت تضايقنى وتثير حرجها ..

قالت لى وهى تجلس فى الفراش وتغطى فمها :

- « القشعريرة .. لاشىء سوى القشعريرة .. سوف تنتهى هذه الآلام سريعًا فقط حين ينتهى هذا اليوم الكريه .. »

لكنك تعرف تمامًا أن شيئًا من هذا لم يحدث ..

لقد تكررت النوبات عدة مرات طيلـة الليل ، وفـى الصباح كنت لم أغمض عينى ثانية واحدة .. الآن صار الوجود كله غشاوة بيضاء لزجـة ، وثمـة عقل آخر قضى يفكر لى ويتخذ القرارات لى ..

لابد من حل .. لن يستمر الوضع على هذا المنوال ..

أخنقها ؟ لا طبعًا .. لست ميالاً إلى هذه الحلول الثورية ، فأنـا مـازلت أحبها كما تعلمون ، ولنفس الأسباب يصعب أن أطلقها ..

لابد من حل ما ..

★ ★ ★

الممرضة الكينية (مارى) بدينة كفرس النهر يلمع جلدها كقشر الباذنجان .. أسنانها بيضاء كورق هذا الكتيب .. وهى ظريفة كما ينبغى لمن كانت فى هيئتها .. أنتم تعرفون أسلوب القولبة أو Archetyping والذى يصدق غالبًا : كل النحيلات عصبيات .. البدينات ظريفات .. الخ ..

قابلتها أمام عيادة الأطفال فبادرتنى محيية ، وسألتنى عن الدكتورة (برنادت) التى طال غيابها .. إنها تحبها حقًا وليس فى هذا عبقرية ما .. كل من يعرف (برنادت) لابد أن يهيم بها حبًا .. ثمة إجماع عالمى على ذلك ، وكأنها (شارلى شابلن) أو (ميكى ماوس) كما قلت من قبل ..

قلت لها إن (برنادت) مريضة جدًا ..

ـ « أوه .. هل هناك أعراض جميلة .. أعراض سارة ؟ »

ـ « هل توجد أعراض سارة ؟ »

ـ « نعم . نعم .. هى هى .. القىء .. الدوار .. هى هى .. »

كان هذا يثير جنونى عامة فالأمر من أخص خصوصياتنا وأنا أمقت من يسألنى كل دقيقة عما إذا كنا ننتظر طفلاً أم لا .. هذا شائع فى مصر .. وقد اعتدت أن يسألنى الناس أولاً عما إذا كنت تزوجت أم لا ،

فكنت أرد فى خجل وشعور بالذنب : صحوت اليوم متأخرًا فلم أتزوج .. ذلك المنبه الأحمق لم يوقظنى ..

قلت للمرضة وأنا أتاهب للانصراف :

ـ « لا شىء من هذا .. قشعريرة ورجفة .. »

وكدت أنصرف فعلاً حين سمعت المرأة تشهق وتضرب صدرها ..

ـ « قشعريرة ! هذا غريب ! »

ـ « نعم غريب .. لكن ليس إلى هذا الحد .. »

لا أدرى كيف يمتقع الوجه الأسود .. لكن عينيها اتسعتا على كل حال إلى درجة أن وجهها صار أبيض .. وقالت :

ـ « إنها لعنة تلك المرأة ! »

ـ « عم تتكلمين بالضبط ؟ »

ـ « أم الغلام الذى مات فى العيادة ! لقد تمنت أن ترتجف الدكتورة (جونز) خوفًا طيلة حياتها ! »

* * *



وكدت انصرف فعلاً حين سمعت المراة تشهق وتضرب صدرها : ـ «قشعريرة ! هذا غريب !» ..

قلت للمرضة البدينة وأنا أدس يدى فى جيبى معطفى :

ـ « ما هذا السخف ؟ »

قالت وهى تعتصر الصليب المعلق على صدرها وترتجف :

ـ « المرأة لم تكن على ما يرام يا دكتور .. إنها مشعوذة أو ساحرة أو ـ على أقل تقدير ـ على اتصال بالأرواح .. وحين مات صغيرها جن جنونها .. قالت للدكتورة (جونز) باللغة السواحلية إنها تتمنى أن تعيش الخوف والقشعريرة طيلة عمرها .. »

ـ « كلام فارغ .. (برنادت) لم تمس الغلام حتى .. »

ـ « لكن المرأة لا تعرف هذا .. وهى مصرة على أن الطبيبة الشقراء أصرت على إدخال المحقن فى صدر الصغير .. وبرغم أنها نصحتها .. وكان حدسها صائبًا .. مات الغلام ، ونعمت الطبيبة بالحياة والثراء .. ترى من يصدق امرأة فقيرة بائسة حين تتهم الطبيبة بقتل طفلها ؟ »

قلت لها فى حنق :

- « لا أدرى سر حماستك .. لو أن المرأة هنا لما اتهمت (برنادت) بهذا الوضوح .. »

- « فقط أنقل لك طريقة تفكيرها يا دكتور .. »

ناداها أحدهم من عيادة الأطفال فهزت رأسها وعادت إلى الداخل ، ولم تنس أن تقول لى :

- « صدقنى .. فكر بهذه الطريقة ولسوف تنجح فى إنقاذ الدكتورة (جونز) .. رباه ! »

وضربت صدرها بيدها للمرة الألف وهتفت :

- « رباه ! وأنا كنت أحسبها تنتظر حدثًا سعيدًا ! »

طبعًا ليس هذا النوع من الكلام مما يعلق بالذاكرة ، وقد كان على أن أنساه على الفور وأسخر منه .. لكنى تذكرته من جديد ..

تذكرته عصرًا حين دخلت الغرفة ..

تذكرته حين عادت نوبة القشعريرة إلى (برنادت) ..

تذكرته حين تذكرت الفترة الزمنية القصيرة جـدًا بين الحادث وبدء الأغراض ..

تذكرته حين سألت (برنادت) عن رأيها فـى هذه القصة السخيفة ، فقالت لى إنها ليست سخيفة جدًا :

ـ « كانت المرأة تهددنـى .. عرفت هذا وشـعرت به دون ترجمة .. وكانت عيناها تقولان إن تهديدها ليس هزلاً »

ـ « هل تتحدثين عن لعنة تطاردك ؟ »

ـ « لا أتحدث عن شىء .. لكن هناك شيئًا لا أستطيع تفسيره ولا أستطيع الخـلاص منـه .. (عـلاء) .. أنا مذعورة كأرنب يرى مطارد .. »

وحين نظرت إلى عينيها كانت تبكى ..

* * *

٥ ـ ربما يعرف (شارل) ..

قلت للموظفة المسئولة عن السجلات :

ـ « أريد معرفة اسم هذه المرأة ومن أين جاءت .. »

كانت الموظفة فتاة كينية تعسة جدًا ونحيلة جدًا ، يبدو أنها تختنق من ثقل العوينات الغليظة التى تتحدر على أنفها .. وكانت تذكر الحالة بالضبط لأن تحقيقًا جرى حولها ..

فتشت فى الأوراق قليلاً ثم قالت :

ـ « يوم الأربعاء .. المرأة تدعى (لواما) .. قالت إنها من (فوى) .. لا توجد بيانات أخرى .. »

ـ « (فوى) ؟ »

قالت وهى تغلق الملفات :

ـ « (فوى) .. ف ... و ... ى .. »

ـ «أعرف .. سمعت .. أعنى ما هى (فوى) هذه ؟»

ـ « بلدة صغيرة لا أهمية لها .. لكن خط سكة حديدية يصلها بجبل (كليمنجارو) .. ربما هذه هى أهميتها الوحيدة .. »

لم أكن أعرف الكثير عن (كينيا) .. رأيت الكثير من الطائرة ، لكن يمكن القول إننى لا أفقه شيئًا فى أى موضع يبعد عن بحيرة (تانا) .

من السخف أن أفكر فى البحث عن تلك المرأة ، لكن شيئًا ما يقول لى إن القصة لم تنته بعد ، وإن علىّ أن أعرف أين هى .. على الأقلِ سأبقى هذه المعلومة فى أعماق ذهنى وأنثر فوقها طنًا من المشاغل اليومية ..

كان علىّ أن أرحل ..

ولكن كيف أرحل و(برنادت) فى أسوأ حال ؟

إن الهالات السوداء تحيط بعينيها ، وأحسبها فقدت خمسة كيلوجرامات كاملة فى ثلاثة أيام .. النوبات تصيبها الآن بانتظام يثير الإعجاب .. ربما عشر نوبات

فى اليوم ، لاتطول الواحدة أكثر من خمس دقائق ، لكنها تتركها حطامًا بشريًا .. كنت أرى جارنا يعدم الفئران التى تقع فى مصيدته بطريقة عجيبة قاسية .. كان يمسك بالمصيدة ويرجها بأعنف ما يستطيع ولمدة خمس دقائق ، فإذا انتهى وجدت جثة الفار مكومة فى المصيدة لأنه لم يتحمل كل هذا الارتجاج .. حسن .. أنا أتخيل ما يمكن أن يحدث لإنسان يمر بهذه التجربة ، خاصة لو كان هشًا رقيقًا مثل ملاكى الصغير ..

تبًا لهذه الأمراض الإفريقية الغريبة التى لايستطيع أحد تشخيصها .. ألم يقل لى الجميع إننى سأعود من الكاميرون مصابًا بحمى غامضة تستمر عامين ثم أموت ويطلقون اسمى على رصيف النقابة ؟ أخشى أن أعود أرمل كذلك ..

المشكلة الآن أننى يجب أن أرحل .. يجب العودة إلى مرض (كالا آزار) الرهيب وقرى (الكيكويو) لأن هؤلاء القوم هنا لا يعرفون معانى التسامح و(الجدعنة) والظروف .. لكن كيف أتركها ؟

قالت لى صديقتها ومواطنتها الكندية :

ـ « لاتخش شيئا .. سأتولى الأمر .. »

طبعًا لم أثق بشىء لكنى تظاهرت بأننى أثق .. كان علىّ أن أثق كى أتمكن من ممارسة حياتى من جديد ..

وكانت طائرة الهليكوبتر تنتظرنى .. وكانت محركاتها تهدر مطيرة ثيابنا وشعورنا والغبار فى عيوننا معلنة أن علينا البدء بنوع جديد من المشاكل ..

* * *

كنت عصبيًا كالعادة كلما ركبت الهليوكوبتر لأن وسيلة الطيران المهتزة هذه لا تبدو لى ثابتة بما يكفى كى تضمن حياتى .. بل أنا لا أفهم المعجزة التى تظل ثابتة بها فوق الهواء ، بينما هى أقرب إلى قطعة صفيح تحاول السقوط فى أية لحظة ..

قال لى الطيار وهو يمضغ شيئًا ما ، ويصرخ كى يصلنى صوته فوق المحركات :

ـ « سيكون علينا اليوم البدء فى مجموعة القرى قرب (فوى) .. »

ـ « فوى ؟ »

ـ « (فوى) .. ف .. و .. ى .. »

ـ « أعرف .. سمعت .. أعنى هل هى (فوى) التى يربطها خط حديدى بجبل (كليمنجارو) ؟ »

ـ « نعم .. »

كان هذا غريبًا .. مصادفة غير معهودة .. لكن أشياء كهذه تحدث من حين لآخر ويحكمها قانون الصدفة العجيب الذى يشعرنا دومًا بأن هناك تخطيطًا أكثر تعقيدًا مما حسبنا يدور من حولنا ..

ونظرت إلى الوراء حيث كانت مجموعة الممرضات يعددن عقاقيرهن ودفاترهن .. ربما يعرفن شيئًا عن (فوى) هذه ..

بعد دقائق بدأت الطائرة تدور حول نفسها لتسقط ..

أعنى لتهبط بتلك الطريقة الدوامية المرعبة .. وكان ما أراه بالفعل مدينة صغيرة .. مدينة لها طابع الغرب الأمريكى كما نراه فى الأفلام .. تلك المدينة التى ترتبط بالسكك الحديدية والتى يكون فيها النشاط البشرى الأساسى هو الشحن .. شحن أشياءً ما توضع فى عربات قطار بدائى يصلح كى تطارده خيول الهنود الحمر ، وتوقعت أن يظهر مأمور القرية فى أية لحظة ..

كان هناك قطار بضاعة .. وبضع عربات متناثرة على قضبان مجاورة .. وتحويلة .. وأوناش عملاقة وميزان عربات .. وكان هناك حشد من الحمالين يقفون يرمقوننا فى فضول حيث نزلت الطائرة ومحركاتها لم تكف بعد ..

حين صار الاقتراب ممكنًا رأينا رجلاً أسود أصلع الرأس نحيلاً يلبس قميصًا أبيض قصير الكمين ، ويضع فى قدميه صندلاً .. وفى جيب قميصه قلمان وعلبة السجائر الأمريكية الحمراء إياها ..

جاءنا بخطوات سريعة تنم عن النشاط والعملية ، وقال بإنجليزية لا بأس بها وهو يصافحنى :

- «أنا طبيب وزارة الصحة فى هذه البلدة المتواضعة .. اسمى (أدواما) .. د. (أدواما) .. وأعرف أنكم لم تزوروا (فوى) من قبل .. »

وفى مكتبه الضيق المتواضع كان هناك جهاز تكييف صاخب عتيق الطراز ، وبضع علب من المياه الغازية الباردة وممرض مذعور كالعادة ، وكومة من الجرائد والمجلات ، وصورة (زعيم ما) على الجدار لا أعرف من هو ...

الخلاصة أن الوضع كان مترفا أكثر مما يمكن تصوره ، وبدا لى أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان .. قارن هذا بأكواخ الكيكويو القذرة وعجين الكاسافا ..

قال لنا وهو يفتح لنا بعض العلب :

- « بووش !! مهمتى أن أنسق لكم القرى التى ستقومون بزيارتها .. تعليماتى هى أنكم ستبدءون من

هذا المكتب فى كل مرة .. لفافة تبغ ؟ لا أحد يدخن ؟ هذا حسن .. إنها عادة سيئة .. »

وأشعل لفافة تبغ ونفث الدخان فى الهواء :

ـ « عادة سيئة هى .. عادة سيئة .. »

كانت هناك خارطة جدارية متآكلة لايمكن فهم شىء منها ، لكنها كانت واضحة بالنسبة له ..

ـ « سنبدأ من هذه القرى ثم ننتقل إلى هذه .. ثم هذه .. »

سألته :

ـ « وهل سترافقنا ؟ »

ـ « المفروض أن أقوم بهذا .. لكنى سأطلب منكم السماح لى بالتخلف بعض الأيام ، وهذا بالطبع بينى وبينكم .. »

وغمز بعينه فى خبث وأردف :

ـ « إن لدى طناً من المسئوليات هنا .. آخر شىء

يشغل بالى هو داء الـ (كالا آزار) .. ولـن أستطيع أن أترك كل هذا للتنقيب فى الأكواخ .. »

ـ « مفهوم .. مفهوم .. »

تم التعارف بسرعة .. أعتقد أنه ليس سمجًا إلى هذا الحد ..

وعندما غادرنا المكتب وقد اتفقنا على الخطة العامة لهذا اليوم ، كانت هناك سيارة (لاندروفر) تنتظرنا .. وسائقها يتسلى بالتهام برتقالة يقشرها بأظفاره العارية وقد استند فى تراخ إلى سيارته ..

ـ « هذا (مصطفى) .. وهو سائقنا فى هذه الحملة .. »

صافحت (مصطفى) فصارت ليدى رائحة قشر البرتقال العطرية .. وخطر لى أن أسأل سؤالاً عنّ لى :

ـ « هل هناك امرأة ساحرة فى هذه البلدة تدعى (لواما) ؟ »

نظر لى الطبيب فى عدم فهم ، ثم هز رأسه :

ـ « هذه البلدة كبيرة نسبيًا .. لكن يمكن أن أتأكد .. »

وسـأله بالسواحلية .. كالعـادة استغرق السؤال وقتًا طويلاً جـدًا وكـان رد (مصـطفى) هو أن هز رأسه وأشار إلى أحد الواقفين عن بعد .. قال الطبيب :

ـ « يقول إن (مولاجو) قد يعرف ... »

بدأ (مولاجو) يفكر فى ذكاء شاعرًا بأهميته ..

ـ « (لواما) .. (لواما) .. هم م م .. »

ثم أشار إلى بعيد .. نحو مجموعة من المبانى وقال بإنجليزية رديئة :

ـ « عند (شارل) .. »

هنـا بدا التذكر على الطبيب الكينى .. هتف وقد تذكر :

ـ « آه ! تعنى تلك المرأة ؟ لست متأكدًا من اسمها (لواما) .. لكننى أذكر الحالة »

قلت فى غيظ :

ـ « واضح من كلامى أنها امرأة .. »

قال دون أن يلاحظ غيظى :

ـ « كان لها ابن مريض .. كيف تظن أنه بلغكم ؟ لقد فحصته أولاً ثم طلبت منها أن تتجه إلى وحدة (سافارى) لأنها أقرب مركز طبى ممكن .. طبعًا استخدمت المواصلات الشاقة العادية .. ما كانت لتجد طائرة هليكوبتر .. »

ـ « حسن .. لقد مات هذا الغلام .. »

قال فى لا مبالاة :

ـ « آه .. يا للخسارة .. لكننى لم أعرف هذا .. لقد دفنته ولم تبلغنا .. هذه الأشياء تحدث .. »

قال (مولاجو) فى ذكاء من جديد :

ـ « عند (شارل) .. »

سألت الطبيب :

- « من هو (شارل) هذا ؟ »

- « لا أعرف .. لكن الوقت ليس مناسبًا الآن .. »

ونظر فى ساعته وأردف :

- يجب أن نتحرك قبل أن ينتصف النهار وإلا حل الليل علينا قبل أن نعود .. »

* * *

٦ - قد يوجد الجواب ..

لم يكن يومًا سيئًا ..

كان القوم متحضرين ، وكان الود سمة عامة فى تعاملات اليوم .. صحيح أن د. (أدواما) كان يدخن كمحرقة الجثث ، لكنه كان لطيف المعشر وقد استرحت له .. أما بالنسبة لداء (كالا آزار) فكان قليلاً فى تلك القرى ، ويبدو أن ذبابة الصحراء مسالمة هنا نوعًا ..

عندما دنا الغروب كنا قد وصلنا إلى مكتب (فوى) ، وكنا قد قمنا بعمل طيب ..

قلت له إننى سأعود مع فريق العمل بعد غد .. وودعته ، وطبعًا نسيت كل شىء عن تلك المرأة وعن (شارل) هذا .. وهرعنا إلى طائرة الهليكوبتر التى بدأت تشق طريقها عبر الأجواء التى صارت زرقاء تمامًا .. توطئه لأن تكون سوداء ..

حين وصلت إلى (سفارى) أدركت أن هناك مشكلة ما ..

سقط قلبى فى قدمى حين دخلت الغرفة لأجد أنها خالية على عروشها ، وأن الفوضى ضاربة أطنابها .. ملاءة هنا وغطاء فراش هنا ومحقن فارغ هناك .. وكان الطبيعى أن تكون (برنادت) بانتظارى وأن تكون الغرفة منسقة لأنها لاتطيق الفوضى .. ثمة كارثة قد حدثت ..

خرجت من الغرفة وأنا لا أعرف ما أفعله أو أين أبحث ..

فى اللحظة التالية قابلنى طبيب أسترالى كان مارًا ورأى مظهرى المبعثر المذعور ، فقال لى فى شفقة :

ـ « إنها فى العناية المركزة !! »

ـ « العناية الـ ؟ »

قال كأنما يضايقه غبائى كثيرًا :

ـ « لا أدرى لماذا لا تهدأ بعض الشىء .. ليس الأمر خطرًا .. إنها على أتم صحة .. فقط عاودتها تلك النوبات الصرعية .. »

ـ « صرعية ! »

قال وهو يتراجع للوراء :

- لو لم تكن لديك خطط أفضل للأمسية سوى ترديد آخر كلمة أقولها فأنا أرجو أن .. »

كنت قد تركته ورحت أركض كالمجنون نحو العناية المركزة ..

فتحت الباب كأننى راعى بقر يفتح باب الحانة الشبيه بجناحى الوطواط .. وكراعى بقر دخلت لأقابل (سينوريه) الباسم - بلاسبب - الذى هتف وهو يمسك بى :

- « هلم .. لا داعى للقلق .. فقط تكررت النوبات كثيرًا ورأينا أنه من الأفضل لها أن تكون هنا .. »

- « يقولون لى إنها نوبات صرعية .. »

- « هذا خلط لا معنى له .. إنها تلك النوبات من القشعريرة والرجفة .. لا أكثر ولا أقل .. »

كنت قد تركته واندفعت إلى الداخل وشققت طريقى بين الستائر الخضراء السميكة ، فقط لأجدها جالسة فى الفراش النظيف تقرأ رواية فرنسية ما على ضوء

المصباح الجدارى فوقها ، وتلتهم بعض الكاستر من كوب زجاجى وضعته على حجرها .. كانت هادئة كقطة .. وقد جعل هذا أعصابى المتوترة تسترخى فجأة .. واسترخاء أعصابى جعلنى أفقد السيطرة على عضلاتى .. سقطت على ركبتى جوارها ورحت أضحك .. لكنه ضحك اهتزازى يوحى بالجنون أو الدنو منه ..

وضعت يدها الممسكة بالملعقة على رأسى وقالت :

ـ « أنا بخير يا صغيرى .. لقد أفزعوك .. »

ثم أضافت :

ـ « لاشىء .. مجرد المزيد من هذه النوبات .. »

ـ « يا سلام ! هذا مطمئن حقًا .. »

ـ « لقد لاحظت (ميشيل) أن لون شفتى بدأ يزرق ، وكانت صاحبة فكرة أن أظل فى العناية المركزة وأن أتلقى الأكسجين .. »

وكأنما لتسعد فؤادى أردفت :

ـ «يبدو أن ضربات القلب لم تكن منتظمة جدًا .. »



فقط لأجدها جالسة فى الفراش النظيف تقرأ رواية فرنسية ما على ضوء المصباح الجدارى فوقها ..

هذا لم يعد مزاحًا .. إن حياتها فى خطر بالفعل .. وعلىّ أن أعرف السبب ..

الطب لم يعرف السبب فهل .... ؟

* * *

المرأة تقول شيئًا ما بالسواحلية ..

اسمها (لواما) .. بلدتها تدعى (فوى) .. عند (شارل) ..

(مولاجا) يعرف .. هى هى .. برتقالة فى يد (مصطفى) .. ستكونون هنا قبل زيارة القرى .. ولكن .. يغمز الدكتور (أدواما) بعينه .. يغمز .. يغمز ..

طفل صغير يصرخ بينما ينغرس مثقاب كبير فى ضلوعه .. جبل (كليمنجارو) العملاق ينفجر من صدره ، ويغرق الدم قرى (الكيكويو) ، وأسبح أنا فى السائل الأحمر صارخًا .. يد (برنادت) تخرج وتغيب وسط الموج

الأحمر .. أمد يدى .. أحاول انتشالها .. لاجدوى
إنها تبتعد .. قشعريرة .. قشعريرة .. ليست الملا
يا بنى .. ربما أنت ذئب أو وغد .. من يدرى
صدمة عصبية ؟

شفتاى صار لونهما أزرق .. المحقن ينغرس بين
ضلوع (برنادت) وأنا فقدت يدها وسط محيط
الدم .. وفتحت عينى فى الظلام لأدرك أننى غار
فى العرق وأننى فى غرفتى .. كم الساعة الآن
رباه ! الثالثة بعد منتصف الليل ؟ لم أنم أكثر من
ساعة حلمت فيها بعمر كامل من الكوابيس ..

الأمور تسوء ..

غدًا سأطلب إجازة .. فإن لم يوافق (ستيجوود
فلسوف أستقيل ..

يجب أن أعود إلى (فوى) .. يمكننى الانتظا
إلى ما بعد غد ، لكن الأحداث تتطور بسرعة وعل
أن أجد حلاً عاجلاً ..

وفى الصباح كنت قد ظفرت بإجازة لمدة يوم ، أما بعد غد فلسوف أكون بانتظار القافلة الطبية حين تصل بالهليكوبتر .. اطمأننت على (برنادت) وأخبرتها بما انتويت ..

قالت وهى تكتم ضحكة :

ـ « أنت لن تتمادى فى هذا الكلام الفارغ .. »

ـ « لا أدرى .. لكنى أشعر بأن على أن ألقى المرأة وأشرح لها بشكل ما أنك لست قاتلة ابنها .. »

ـ « لن تصدقك .. »

ـ « ولن أخسر شيئًا .. »

ثم انطلقت لا ألوى على شىء قبل أن تقتعنى بأنى سخيف ..

سأذهب إلى (فوى) ..

سأقابل المرأة الغامضة ..

سأعرف ما تعرفه عن هذه القصة ..

★ ★ ★

قال لى د. (أدواما) وهـو يحك صلعته السمرا
اللامعة كالزجاج :

ـ « غريبـة هذة الحماسـة منـك .. لكنى سـأريحا
على كل حال .. »

كان هذا بعد ثلاث ساعات من السفر فى أشو
الطرق وأغرب وسائل المواصلات طرًا .. هذه مز
اللحظات التى تعرف فيها نفع الهليكوبتر التـى تقطا
المسـافة فى دقـائق .. لكن الهليكوبتر ـ طبعًا ـ خاصا
بـ (سافارى) ولن تخرج من أجل سواد عينىّ أو زرقا
عينىّ (برنادت) ..

نـادى الطبيـب (مـولاجـو) ، ثم فتـح لى ـ دوز
كلمة ـ علبة من المياه الغازية التى يبدو أنها تتوالا
تلقائيًا عنده .. وسرعان ما ظهر (مولاجو) فسألا
الطبيب بالسواحلية بضعة أسئلة ..

يبدو أننى نسيت أن أصف لك (مولاجو) .. كان ضخ
الجثة ذا شـارب كث كالفرشـاة .. ولـم يكن يلبس مز

الثياب إلا فانلة داخلية وسروالاً قصيرًا ، وكانت قدماه ضخمتين حافيتين يكسوهما الغبار حتى الكاحلين ..

قال بإنجليزيته الرديئة إياها :

ـ « المرأة عند (شارل) .. »

ـ « ومن هو (شارل) .. »

ـ « الفرنسى .. »

بدأت أفهم .. هناك فرنسى يدعى (شارل) والمرأة عنده .. إن سيل المعلومات هذا يفوق قدرتى على الاستيعاب ..

قال له (أدواما) بالإنجليزية وهو يسترخى فى مقعده :

ـ « أريدك أن تصحب الطبيب هناك .. إنه صديق عزيز .. »

ردد (مولاجو) نفس العبارة :

ـ « عند (شارل) .. المرأة عند (شارل) .. »

ثم خرج من الغرفة ، فأشار لى الطبيب أن أتبعه .. ولما رأى ترددى قال ما معناه إن (مولاجو) غريب الأطوار محدود الذكاء لكنه شهم خدوم ..

ومشيت بمحاذاة قضيب القطار مع (مولاجو) الذى لم يكن يبالى بالحصى الحاد وبقع الجازولين تحت قدميه .. هاتان قدمان اتخذتا طبقة كثيفة من الخشونة والاحتكاك حتى صارتا حذاءين ممتازين يصلحان لاجتياز أية عقبة ..

سألته بالإنجليزية وأنا ألحق بخطواته الواسعة :

ـ « مازلت لا أفهم .. من (شارل) هذا ؟ »

ـ « إنه الفرنسى .. »

ـ « نعم .. نعم .. وماذا يفعل هذا الفرنسى ؟ »

هز رأسه وقال فى لامبالاة :

ـ « لايفعل شيئًا .. إنه زوجها .. »

بدا لى الأمر غريبًا .. إمرأة من الكيكويو متزوجة من فرنسى يدعى (شارل) والغريب أنها تمارس كل طقوس الكيكويو وتسكب بول البقر على ثيابها .. أليس هناك شىء غريب هنا ؟

المكان الذى قصدناه كان أقرب إلى مخزن مواد غذائية .. هناك شكائر حبوب متراكمة تذكرك بوكالات الإغاثة .. وهناك علب من الأسمدة .. وهناك رجل أجنبى فى الأربعين من عمره ، يجلس على مقعد من الخوص فى الشمس يطالع جريدة ما .. لقد كان يومًا باردًا إلى حد ما . فلما رآنا رفع عينيه عن الجريدة ولم يبد مودة كثيرة ..

قلت له بالفرنسية :

ـ « نحن نبحث عن (لواما) زوجتك .. »

كان من النوع الذى يدلى العوينات على قصبة انفه ويكلمك من فوق إطارها العلوى ، وقد قال بنفس البرود :

ـ « هل لى أن أعرف السبب ؟ »

كدت أقول له إن هذا ليس من شأنه ، ثم تذكرت أن المرأة زوجته وأنه الوحيد فى العالم الذى يحق له توجيه سؤال كهذا .. فقلت فى كياسة :

ـ « جئت أقدم تعزيتى الخاصة على مصابكم الأليم .. واسأل عن شىء ما .. »

ابتسم فى رقة ومودة ، ثم طوى الجريدة ونادى باعلى صوته :

- « (لوااما) .. تعالى هنا ! »

سألته وأنا أتأمل المكان من حولى :

- « كيف حدث أن تزوجت من الكيكويو ؟ »

قال وهو يتأمل أظفار يده :

- « قصة طويلة .. الحقيقة أنها فرت من قبيلتها إلى (فوى) ولم يكن لها من صديق ولامعين .. فوجدت أن خير طريقة للعناية بامرأة هى أن تتزوجها .. وصدقنى إنها زوجة صالحة .. »

هنا سمعت خطوات قادمة من الداخل ، وبعد قليل رأيت امرأة سوداء ترتدى ثيابًا أوروبية ، وأعترف أنها كانت جميلة .. جميلة ونظيفة جدًا ..

رأتنا فاتسعت عيناها البيضاوان فى وجهها الأسود ، وقالت بفرنسية ممتازة لايستطيع (ديكارت) الكلام بها :

- « ماذا هناك يا (شارل) ؟ »

ـ « هذا الشاب يقدم تعزيته الحارة لك .. »

ـ « على أى شىء يا (شارل) ؟ »

ـ « لا أدرى .. لكن هناك دومًا ما نستحق العزاء عليه .. هذه طبائع الأمور .. »

هنا بدأت أفهم سوء الفهم الذى قادتنا إليه الأحداث ، وسعلت فى شىء من عصبية وسألتها :

ـ « ألم تفقدى غلامًا فى المستشفى منذ أيام ؟ »

قال الفرنسى وهو يستمتع بالموقف :

ـ « (لواما) ليس لديها رحم منذ خمسة أعوام أيها الشاب .. »

تراجعت وأنا أعتذر فى حرج ، وإن أدركت بوضوح أن الفرنسى يسخر منى .. لاعبًا لعبة البرود والردود الغامضة التى لا تقطع بشىء .. فقط قلت للمرأة وأنا استعد للانصراف :

ـ « هل هناك (لواما) أخرى فى (فوى) ؟ »

نظرت إلى زوجها محاولة التذكر ثم قالت :

ـ « نعم .. نعم .. هناك (لواما) لكنها كانت تأتى وترحل بلا ميعاد .. كانت تهبط من الجبل .. ويبدو أنها كانت على شىء من الخبال .. »

هذه هى ! من بين ألف (لواما) قد تكون هنا ، فلابد أن (لوامتى) هى المخبولة بينهن .. ألم تقل (برنادت) إنها تبدو مشعوذة أو كالمجاذيب ؟

ـ « كيف لى أن أجدها ؟ »

ـ « لن تجدها .. هذا مستحيل .. »

ـ « لماذا ؟ ليس البحث بالأمر المستـ .... »

قالت وهى تتجه إلى المخزن بالداخل لتواصل عملها :

ـ « لا أحد يجد (لواما) .. لكنها تجد الناس متى أرادت .. »

* * *

٧ـ هناك فى الجبل ..

قال (ماسومو) وهو يرتجف من الرعب كعادته :

ـ « ليس أمامك من سبيل إلا أن تدخل .. الحق أقول لك إن الدخول يحمل الهلاك الأكيد ، لكن البقاء حيث أنت معناه موت لا مناص منه .. »

فكرت فى كلامه فوجدت أن خياراتى واسعة فعلاً ..

وكان قرارى ـ الذى هو ليس صحيحًا بالضرورة ـ هو أن أدخل ..

إن القبور تزخر بالشجعان كما قالوا ، وأنا أكره أن أبيت فى قبر آخر ، لكن لا خيار لى ..

★ ★ ★

حين عدت إلى مكتب د. (أدواما) وجدته منهمكًا بتوقيع مجموعة من الأوراق ، وكانت الساعة الآن

الثانية ظهرًا ، ويبدو أنه كان راغبًا فى الخلاص منى كى يتفرغ للغداء ..

قال لى وهو يوقع الأوراق ولفافة تبغ تتدلى من فمه :

ـ « حسن ؟ »

ـ « ليست هى .. »

ـ « آه .. »

ـ « الأخرى ماتت من أسبوع .. »

لم أعد أسمع نفسى لأن قطارًا دخل المحطة فى هذه اللحظة .. والحقيقة أن (فوى) بأسرها محطة قطار كبيرة .. فى النهاية عرفت أنه يقول :

ـ « هل ستعود أم تنتظر الطائرة غدًا ؟ »

كنت راغبًا أشد الرغبة فى العودة .. إن (برنادت) ليست على ما يرام ، لكنى فكرت راجفًا فى الرحلة الشاقة التى تنتظرنى .. بعد تفكير قلت له :

ـ « هل يوجد هاتف هنا ؟ »

رفع حاجبيه كناية عن الدهشة مع ابتسامة خفيفة وقال :

ـ «طبعًا .. أنت فى مدينة متحضرة .. ماذا تظن ؟ »

ـ « أريد أن أطلب (سافارى) .. »

مد يده فى درج المكتب وأخرج جهاز هاتف لاسلكيًا صغيرًا ، وقذفه لى .. قال وهو يواصل تصفح أوراقه :

ـ « أنت تعرف الرقم الكودى .. »

طلبت (سافارى) واستغرق الأمر قدرًا لا بأس به من الجهد لأن الخطوط هنا ليست شبكة خطوط (نيويورك) بالطبع .. وفى النهاية سمعت صوت الكمبيوتر يرد علىّ ، وتمكنت من أن أتصل بالعناية المركزة طالبًا أن أتحدث إلى (برنادت) ..

جاء صوتها .. وهذه المرة لم تكن تشبه القطة الهائنة فى شىء ..

قالت وهى تهتز .. عرفت هذا لأن الصوت يهتز :

- « (علاء) .. أنا .. أنا .. فى حالة صعبة .. إن .. إن نهايتى فى هذه القشعريرة .. أعرف هذا وأفهمه .. يجب .. يجب أن .. تجد تلك المرأة .. »

صحت بصوت عال كى أقهر المسافات وصوت القطار :

- « كنت تقولين إن هذا سخف .. »

لم تسمع ما أقول .. فقد عادت تردد :

- « يجب أن تجدها يا (علاء) .. إنها المسئولة عما أنا فيه .. أنت تعرف كما أعرف أنها المسئولة .. »

- « لكنها قد ماتـ .... »

هنا انقطع الاتصال .. وجلست فى غباء أرمق السماعة لبضع دقائق ..

الآن صار علىّ واجب مقدس هو أن أبقى هنا وأبحث عن تلك المرأة .. لماذا ؟ لأن (برنادت) تعرف أن هذا مهم .. لأن (برنادت) اقتنعت الآن أن هذا مهم ..

لا أدرى كيف يكون مهمًا .. إن الكلام عن ساحرة عجوز والتوسل إليها ـ فضلاً عن أنها ماتت ـ كى تنزع لعنتها لأمر لا أبتلعه تمامًا .. هذا يناسب كتيبات (ما وراء الطبيعة) لكنه لا يناسبنى حتمًا .. هناك تفسير منطقى ما لهذا كله ..

رفعت وجهى عن الأرض وقلت لـ (أدواما) :

ـ « أين أستطع المبيت هنا ؟ »

فكر قليلاً ثم قال :

ـ « للأسف لا يوجد فندق ولا خان .. أعتقد أن الحل الوحيد أمامك هو أن تبيت عندى .. »

ـ « حقًا لا أرغب فى .. »

ـ « إذن تبيت عند (كولو) .. إن العجوز لن يبالغ فى سعر الليلة .. فأنت أول من يدفع له ثمن المبيت منذ عامين .. »

كانت أفكار عدة تجوب ذهنى .. إنه لم ينتظر كى يلح علىّ، إنما تنصل من عرضه سريعًا ، وهو ما نعبر

عنه فى مصر بمصطلح (عزومة مراكبية) .. يبدو أنه كان يجب ألا أتظاهر برغبتى فى عدم إحراجه ..

دخل (مصطفى) السائق الغرفة ، حاملاً برتقالته الشهيرة ، فوجه له بضع عبارات بالسواحلية .. كان هذا كافيًا .. أشار لى (مصطفى) أن أتبعه ..

وبعد دقائق وقفت السيارة أمام بناية صغيرة من القرميد .. وضغط على النفير .. خرج لنا عجوز إفريقى منحنى الظهر يحيط برأسه شعر كثيف رمادى كأنه أسد عجوز .. وتبادل الرجلان بضع عبارات ..

فى النهاية وجدت نفسى أدخل إلى غرفة نوم صغيرة .. بالتأكيد هى غرفة نوم لأن فيها فراشًا ، ومن الواضح أن أحدًا كان ينام فيه من دقائق !

غرفة فى غاية القذارة بلا جدال ، تفوح فيها روائح عضوية لا يمكن حصرها أو تحملها .. سأريح أعصابك فلا أصف التفاصيل ، لكن يجب أن أقول إن قضاء ليلة هنا لا يتحمله فأر ..

بفرنسية رديئة قال العجوز إن هذه غرفته ـ فلايوجد سواها ـ وإنه إكراما لى سيبيت فى الخارج ، وذلك مقابل شلن (كينى) عن الليلة .. وهو شرف كنت أرجو لو تنازل عنه ..

أخيرًا أجد نفسى وحدى فى الغرفة ، لكنى لن أبقى هنا ثانية واحدة .. أنا لم أبت هنا للفندقة دعك من أن تكون هذه هى الفندقة المرجوة ..

خرجت من الغرفة إلى البيت الضيق القذر ، فوجدت العجوز (كولو) جالسًا على الباب يدخن ما نسميه (سجائر لف) .. كان جالسًا على الأرض فى وضع الاحتباء مباعدًا ما بين ركبتيه النحيلتين فى سرواله القصير ..

جلست القرفصاء على الأرض جواره .. لم ينظر لى .. فقط بصق بصقة عملاقة على الأرض ، وقال فى لامبالاة :

ـ « الذباب .. هناك الكثير منه هنا .. »

ـ « ذباب .. »

وظللنا لعدة دقائق نتبادل كلمة واحدة هى (الذبـاب) .. حتى إنها صارت محادثة بليغة جـدًا لها ألف معنى .. ثم وصلت إلى سؤالى الأول :

ـ « هل تعرف (لواما) ؟ »

لم ينظر لى .. فقط قال بنفس اللامبالاة :

ـ « عند (شارل) .. »

ـ « بل أتحدث عن (لواما) أخرى .. التـى تـأتى من الجبل .. »

فكر قليلاً .. ثم نظر لى فى عينى وقال :

ـ « لماذا تريدها ؟ »

كان من الطراز الذى لايعطيك معلومة إلا لو عـرف سبب السؤال عنها .. وأنا أمقت هذا الطراز ، خاصـة أنك تقابل الكثيرين ممن تسألهم عن فـلان .. فيسـألك ساعتين عن السبب الذى تريده من أجلـه ، وفـى النهايـة يعتذر لك لأنـه لايعرف أين هو ...

لكنى كنت مجبرًا وقد حكيت له القصة الغريبة قدر ما استطاعت فرنسيتى أن تبلغه .. حين تكلم من لايجيد لغة ما ، يكون عليك أن تشوه لغتك ونطقك كى تصل إلى فهمه ..

فى النهاية قال لى :

ـ « أنا الآن أعرف أية (لواما) تعنى .. إن امرأتك فى خطر ، لأن (لواما) تعرف كيف تلعن من يغضبونها .. ولعنتها حقيقية وخبيثة .. »

وبصق من جديد وقال :

ـ « القشعريرة .. » ـ وراح يرتجف كأنما ليؤكد كلامه ـ « .. القشعريرة .. هذه طريقتها المفضلة لقتل أعدائها .. »

كدت أجن .. هذا الرجل يؤكد الخرافات التى أريد أن أنفيها .. لكن الدلائل أقوى من أن تدحض ..

قلت له فى ضيق :

ـ « حسن .. وكيف أجدها إذن ؟ »

ـ « لن تجدها .. إن (لواما) .. »

« ـ نعم .. نعم .. (لواما) تجد الناس متى أرادت .. مفهوم .. »

وفكر قليلاً ثم غمغم وهو يحك رأسه الأشعث بما فيه من كائنات :

ـ « لا أرى ما يمنع من أن تسأل (مولونجا) .. إنه يعرفها جيدًا .. »

ـ « وأين ومن هو (مولونجا) هذا ؟ »

ـ « عند المحطة .. إنه محولجى القطار .. ستجده فى الكشك هناك .. »

نظرت إلى الشمس التى مازالت تتوسط السماء ، ثم أخرجت شلنًا دسسته فى يد الرجل .. وقلت له :

ـ « لا أدرى خططى المستقبلة .. لكنى أرجح أنك ستنام فى فراشك هذه الليلة .. »

ثم نهضت مسرعًا متجهًا إلى المحطة ..

طبعًا كان الأمر مسليًا سهلاً .. دعك من أن أكثرهم لايتكلم إلا السواحلية ، فإن (مولونجا) نصحنى بسؤال (تارو) و(تارو) اقترح أن أسأل (مامادو) .. (مامادو) بحث لى عن (مومينا) ـ (مؤمنة) بالعربية ـ كى تسأل عن (مصطفى) ـ وهو (مصطفى) آخر غير السائق ـ وفى النهاية اقترح (مصطفى) أن أسأل (ماسومو) ..

وكان (ماسومو) هذا هو أول طرف جدى للخيط ..

* * *



٨ ـ قد تقترب من السر ..

قال (ماسومو) وهو يرتجف من الرعب كعادته :

ـ « من أنت ؟ »

* * *

كان (ماسومو) حمالاً .. لو أن هذه البلدة الصغيرة كانت فى كتاب الجغرافيا للصف الثانى الإعدادى ، لكتبوا تحت عنوان (النشاط السكانى) الخاص بها عبارة : كل ما يتعلق بشحن وتفريغ وتجهيز قطارات البضاعة .. وبالتالى كان كل سكان البلدة حمالين أو (عطشجية) أو ميكانيكيى قطارات .. بلدة يعرق أهلها الجازولين بدلاً من الماء ..

كان (ماسومو) حمالاً .. وقد اهتديت إليه بعد عناء .. كان جالسًا على الأرض جوار كشك التحويلة يلوك شيئًا ما .. وكان فى العشرين من عمره .. نحيلاً ككل



كان جالسًا على الأرض جوار كشك التحويلة يلوك شيئًا ما ..
وكان فى العشرين من عمره ..

سكان البلدة تقريبًا .. له شارب كث وبشرة سوداء لامعة مزرقة قليلاً ، وكان يلبس قميصًا على اللحم عقده على بطنه كأنما هو فى رحلة خلوية ، وسروالاً قصيرًا ، وله ذات القدمين الحافيتين الغليظتين لرجل لم يرتد الحذاء منذ عشر سنوات ..

كان خائفًا على الدوام ، وقد أشفقت عليه كثيرًا بمجرد أن دنوت منه كأننى مندوب العصابة الذى جاء لقتله .. قال لى وهو يرتجف :

- « من أنت ؟ »

- « صديق .. »

قلتها فى ثقة وللمرة الألف حكيت له قصتى وكان يفهم الفرنسية لحسن الحظ ..

قال وهو يعود لاسترخائه.:

- « لن تجدها .. إن (لواما) .... »

لم أكمل العبارة كى لا يقتلنى الملل .. هؤلاء القوم

لايعرفون شيئًا عن أى شىء إذن .. يبدو أننى سأبيت فى تلك الغرفة القذرة وأعود مع الهليكوبتر خائبًا غدًا ..

لما رأى خيبة أملى سألنى فى اهتمام :

- « هل ترغب فى أن تراها حقًا ؟ »

قلت فى غيظ :

- « إن حماستى لشديدة لكنها لاتظهر على وجهى .. »

هنا بدأ يتكلم وكان كلامه غريبًا بحق ..

إن (لواما) هى الرعب الذى يتوارى فى الظلال .. إنها عواء الذئاب فى الأحراش ليلاً .. إنها النذير الذى يتوارى فى كل ركن ويحتشد مع الغيوم المنذرة بدنو العاصفة .. إنها فى كل مكان لكن لامكان لها .. إنها الغدر فى عينى ذئب عجوز و ....

- « كل هذا جميل .. لكنى فقط سألت عن مكانها ولم أطلب سماع ديوانك الشعرى الأول .. »

كنت أشعر بينى وبين نفسى أن فى الأمر خللا ما ..

كلامهم عنها يوشك على أن يمنحها طابعًا خارقًا للطبيعة ..

حتى لو كانت هذه المرأة بهذا الخطر ـ وأنا لا أصدقه ـ فإننى أجد الكثير من اللمسات البشرية، فى أم تأخذ ابنها للمستشفى .. لو كانت بهذا الخطر لعالجته بنفسها .. لو كانت بهذا الخطر لما وثقت بالأطباء ..

هناك تناقض شديد فى هذا الذى أسمعه، لكننى لا أملك فى اللحظة الحالية إلا مجاراة هذه الترهات ..

* * *

ـ « يجب أن تجدها يا (علاء) .. إنها المسئولة عما أنا فيه .. أنت تعرف كما أعرف أنها المسئولة .. »

* * *

كان على أن أفعل ما طلبته (برنادت) .. كان علىّ أن أتمادى فى حماقتى إلى آخر حد ..

مددت يدى فى جيبى وأعطيته شلنا .. راح يرمقه فى ذهول غير مصدق .. هل ما زال هناك حمقى فى هذا العالم ؟ هل ما زال هناك أثرياء ؟

قلت له كما يفعلون فى الأفلام :

ـ « ضعفه لك لو دللتنى على مكانها .. »

نهض من مكانه .. وقف لحظة صامتًا ينظر إلى الأفق .. ثم بدأ يتكلم ..

إنه الجبل الأبيض حيث تغفو الأسرار ، وحيث تكسو جوانبه الغابات .. سهل التسلق لكنه مفعم بالطلاسم الرهيبة .. وهناك تنتظر المرأة ..

عدت أسأله متحققًا :

ـ « هل تتحدث عن جبل (كليمنجارو) ؟ »

ـ « هنا يطلقون عليه الجبل الأبيض .. بل إن معنى (كليمنجارو) بلغتنا (الجبل الأبيض) .. »

ـ « هل تتحدث عن تسلق جبل (كليمنجارو) ؟ »

كان الاسم المهيب يثير الهلع فى نفسى .. خاصة بعدما جعل (هيمنجواى) هذا الجبل أسطورة فى روايته (ثلوج كليمنجارو) .. فيما بعد قدر لى أن أتسلق هذا

الجبل .. هذه قصة أخرى سأحكيها فى وقتها .. لكن فى الوقت الحالى أنا ..

ـ « لن تحتاج إلى تسلقه .. إن هناك قرى فى السفح .. ولسوف نجد مبتغانا لدى سكان تلك القرى »

هدأ روعى قليلاً بعد ما تصورت نفسى ألبس ثياب وحذاء التسلق وأربط خصرى بالحبال ، بينما أمشى على جرف صخرى ضيق .. ثم أسقط وأموت .. طبعًا .. من يسقط ويموت إن لم يكن أنا ؟

ـ « متى ؟ »

تأمل الشلن الذى فى كفه وابتسم :

ـ « قطار البضاعة الذى سيرحل بعد نصف ساعة .. إنه متجه إلى الجبل رأسًا .. »

هذا مناسب .. لا أحب كثيرًا أن يكون رفيق رحلتى هو هذا الفتى المذعور ، لكن ما باليد حيلة .. إنه الوحيد الذى قال لى إنه يستطيع العثور على المرأة .. والمرأة لها علاقة ما غامضة بما يحدث لزوجتى .. و(ماسومو)

سيقودنى إلى هناك، ليس لأنه شجاع، ولكن لأنه ـ كما قال فيما بعد ـ يحب المال ربما أكثر من الحياة نفسها .. منطق غريب .. منطق يسمو فوق المادة .. من أجل المادة !!

قلت له فى استمتاع :

ـ « تبدو النقود قادرة أن تهزم ذعرك من المرأة .. »

قال فى جدية :

ـ « كلنا يموت يومًا ما .. لكن ميتًا امتلأ جيبه بالشلنات خير من ميت مفلس .. والموت جوعًا أشنع ميتة يمكن تخيلها على كل حال .. »

وهكذا تروننى الآن أقف على محطة القطار الخالية .. أداعب بطرف حذائى بقع المازوت المتناثرة على الأرض وأفكر : هل أنا مجنون ؟

ليست معى حقائب ولا متاع .. فقط معى مبلغ محدود من المال فى جيبى ..

ليست لدى خطط من أى نوع .. سأبحث عن المرأة وعندما أقابلها سأفهم ..

من بعيد أرى (ماسومو) قادمًا يعرج بطريقة لم ألحظها من قبل .. حمال أعرج .. هذا هو ما معى من عتاد .. كان يحمل فى يده منديلاً عملاقًا ملفوفًا حول شىء ما ، يذكرك بفلاحينا حين يذهبون إلى الحقل .. وكان فى قدميه حذاءان مهترئان من النوع الذى كانت تمارس به الألعاب الرياضية من عشرة أعوام ..

أشار لى إلى قطار بضاعة يقف بعيدًا عن الرصيف فمشيت نحوه متثاقلاً .

سألته ونحن نقف جوار عربة مفتوحة :

ـ « ألن نجد من ..... ؟ »

كان رده عمليًا جدًا .. لقد وثب إلى العربة مفتوحة الباب ، ثم مد يده الخشنة الضخمة لى كى يساعدنى على الوثب .. متسلل إلى القطارات .. هذا أنا بعد كل هذه السنين .. يا له من عار !

لكن نظرة واحدة إلى عربة القطار كانت كافية كى يتوقف تأنيب ضميرى .. إنها خالية إلا من بعض

أجولة الحبوب ، وبقرة مقيدة تجلس فى الركن .. وبالطبع كانت الأرض مغبرة بالدقيق .. لايمكن لأحد أن يتهمنى بالبحث عن الترف أو الراحة .. إن رحلتى القادمة هى تعذيب لا أكثر ..

جلست وجلس (ماسومو) إلى جوارى ، فيما بدأ القطار يهتز معلنا بدء رحلته الرهيبة إلى (كليمنجارو) ..

أخيرًا توارت المحطة عن عينى ، وبدأت أرى الأشجار والخضرة ..

وشعرت بشىء من الأمل .. إن مهمتى ليست عسيرة .. بالتأكيد لن تكون عسيرة ..

ـ « هل لك فى برتقالة ؟ »

قالها (ماسومو) وهو يفتح المنديل العملاق الذى يضع فيه طعامه .. تناولت البرتقالة فى صمت ـ فأنا لم أذق الطعام منذ الصباح ـ وبدأت تقشيرها ببطء ..

على حين تعالى صوت (ماسومو) ينشد بصوت عال أغنية ما .. أغنية من أغانى الكيكويو تتحدث ـ غالبًا ـ عن البئر .. عن الحسناء السمراء التى تملأ جرتها

من البئر .. عن القمر الذى يعكس ضوءه الفضى على الحسناء السمراء التى تملأ جرتها من البئر ..

موووووووه !

هذه من البقرة طبعًا التى راق لها أو لم يرق لها غناء الرجل ..

من باب القطار أرى جنان النبت الكثيف .. أشجار المانجو التى لم تثمر بعد لأن موسمها بعيد .. ثم نتوغل عبر هضاب جدباء خالية إلا من أشجار نصف شائكة وكلأ جاف على الأرض ..

– « نسميها (نيكيا) ومعناها (البرارى) »

قالها (ماسومو) وهو يتلمظ بعد ما أنهى برتقالته الأولى ..

كنت أشعر بالبرد يشتد برغم أننا ملاصقون لخط الاستواء .. وكان لهذا معنى واحد ..

– « إننا على ارتفاع كبير .. الطقس يزداد برودة كلما ارتفعنا .. »

كانت ساعة قد مرت ، والآن يمكننى أن أرى جبل (كليمنجارو) .. لم أره قط على هذه المسافة ، وقد بدا لى رهيبًا مهيبًا كما توقعت بالضبط ..

قلت للرجل :

ـ « لقد وصلنا .. »

ـ « تقريبًا وصلنا .. »

ووقف على الباب المفتوح يرمق السهول تجرى من بعيد ، وأضاف :

ـ « لكن الليل سيكون قد حل .. يجب أن تمضى أمسيتك فى القرية .. بعدها قد نتحرك نهارًا .. »

ـ « أية قرية ؟ »

قال دون أن ينظر لى :

ـ « قرية المرأة (لواما) طبعًا .. إلى أين تحسبنا ذاهبين ؟ »

* * *

٩ـ إنه يراوغ ..

كانت تجربة يصعب أن تصفها ..

رحلة القطار كانت تجربتى الأولى كى أرى (كينيا) الحقيقية .. (كينيا) التى لاتراها هناك بين جدران (سافارى) وسط أنين المرضى ..

كانت قطعان الجاموس البرى والزرافات ترمح إلى يسار القطار .. وفهمت أن ما يقع يسار القطار هو أكبر محمية للحيوانات الطبيعية فى العالم .. فيما مضى كان الصيد مباحًا إلى يمين القطار ومحرمًا إلى يساره ، أما اليوم فقد صار من العسير أن تصطاد ذبابة هنا ..

أعرف أن هناك محمية هائلة أخرى فى شرق (الترانسفال) فى جنوب إفريقيا ، ومحمية فى الكونغو عند بحيرة (ألبرت) .. وهناك محميات أخرى فى السودان وأوغنده ..

الآن صار (كلمنجارو) العجوز بقمته البيضاء قريبًا جدًا، إلى حد أنك تستطيع لمسه بشيء من الحماسة ..

وبدأ القطار يبطئ ..

قال لى (ماسومو) وهو يعقد أطراف منديله :

ـ « هلم .. سنثب هنا ! »

صعد الحمض إلى معدتى وهتفت محتجًا :

ـ « يا سلام ! لماذا لا ننتظر حتى يقف القطار ببساطة و .... »

قال وهو ينهض ويقف على الباب :

ـ « لأن هذا سيبعدنا عن القرية .. هذه ليست رحلة سياحية كما تعلم .. »

ـ « ولكن .. »

فى اللحظة التالية كان قد توارى عن عينى ..

لقد وثب من القطار الذى لا تقل سرعته ـ بعد الإبطاء ـ عن أربعين كيلومترًا فى الساعة ! وهنا لعب عامل آخر دوره معى : الهلع .. الهلع من أن أبقى وحدى فى هذا القطار المتجه إلى حيث لايعلم إلا الله ..

فكيف العودة ؟ وماذا أفعل وحدى من دون دليلى الأعرج ؟

هكذا أدى الهلع إلى أن أقوم بأشجع عمل قمت به فى حياتى : وثبت ..

أعتقد أن الوثب من طائرة لايحتاج إلى كل هذه الشجاعة .. لقد أغمضت عينى ووثبت فى الهواء داعيًا الله ألا أجد نفسى تحت العجلات بشكل ما ، ووجدت أننى أتدحرج عبر منحدر ما .. رأيت هذا المشهد فى فيلم ما .. ترى ماذا كان اسمه ؟ لا أذكر .. ذكرونى بالموضوع فيما بعد ، أما الآن فأنا أنحدر فوق أعشاب وشجيرات شوكية .. أتقلب .. أرتطم .. أتدحرج .. فى النهاية أتوقف ..

أنا سليم .. لكن كل عظامى مرضوضة تؤلمنى ..

وعلى بعد أمتار وجدت (ماسومو) .. كان - الوغد - يقف على قدميه سليمًا ، بل وبدأ المشى عبر الأعشاب العالية متجهًا نحو سفح الجبل ..

هكذا لم يعد مناص لى من الاستغناء عن الشكوى والتألم ، ونهضت بدورى لاحقًا به ..

الآن نمشى وسط غابة مزهرة جميلة جدًا لها طابع أوروبى غريب لم أحسبه ممكنًا فى إفريقيا .. مشهد يمكن أن تراه فى صور جبال الألب لو كنت تفهم ما أعنيه ..

استغرق المشى عشر دقائق بعدها وجدنا نفسينا نقف أمام المشهد المألوف لقرى (الكيكويو) .. هذه القرية لم أرها من قبل ، لكنى لن أبالغ لو قلت إنى رأيتها ألف مرة .. كانت مسربلة بضوء الغروب الأرجوانى الرهيب ..

قال لى فى ذكاء وهو يبصق بذرة ثمرة ما :

- « بتوه ! هذه .. »

- « نعم .. نعم .. قرية (كيكويو) .. قرية المرأة .. »

حقًا بدا لى الأمر غريبًا .. لقد كافحت هذه المرأة كثيرًا جدًا كى تصل إلى (سافارى) .. كل هذه الحماسة .. من قريتها إلى القطار .. وبالقطار إلى (فوى) .. ثم من (فوى) إلى سافارى فى (بورا) .. حقًا لا أفهم .. هذا يتناقض مع صورة الساحرة الكريهة المخيفة ، بل هو يذكرنا بأم ملتاعة رءوم كما يرسمونها فى مواضيع الرسم فى عيد الأم فى المدارس الإعدادية عندنا ..

ابتلعت خواطرى ومشيت خلف دليلى إلى القرية ..

كان الأهلون عراة تمامًا كأكثر الكيكويو إلا من مئزر حول الخصر يستر العورة .. وكانوا كعادة من عرفت من قبل يبردون أسنانهم لتبدو حادة رهيبة .. النساء يضعن حجالات من النحاس حول سيقانهن وأساور تشبه الثعابين حول الذراعين ربما بلغ عددها العشرين ..

وتذكرت هنا ما حدث لأحد أصدقائى حين جاءتهم فى المستشفى امرأة تلبس هذا العدد من الأساور حول ذراعيها ، وكان من المستحيل الوصول إلى أوردتها لولا أن استعانوا بمن يقص هذه الأساور قصًّا .. بالطبع كل أنثى من الكيكويو تضع فوق ظهرها حملاً ما .. ربما الحطب وربما طفلها وربما خليط التابيوكا (تشبه البطاطا المهروسة) .. والحمل يتشبث بالظهر لكنها تدعمه بسير من الجلد يلتف حول جبهتها ..

هل تلاحظ النساء اللاتى لايضعن أية أساور فى الطرف السفلى ؟ هذا معناه أنهن متزوجات ..

طبعًا لاداعى للحديث عن روث الماشية على الشعر فهذا المشهد صار مألوفا لكم إلى حد أنكم لم تعودوا تشعرون بالاشمئزاز ..

كان الجميع يعرف (ماسومو) لذا كان اللقاء حارًا إلى حد ما .. وسرعان ما وجدنا نفسينا فى كوخ زعيم القرية .. وكان الظلام قد بدأ يحل ، لكن لم يكن من داع للضوء ..

قال لنا الزعيم وقد عرف مبتغانا :

- « (لواما) ؟ لستما أول من جاء يطلب (لواما) .. إن أذاها يعم المكان ، والناس تحاول أن تتقى شرها لكنهم يفشلون غالبًا .. لهذا يأتون القرية بحثًا عنها .. يحملون لها الهدايا طلبًا لرضاها .. »

ومط شفته السفلى وقال :

- « أحيانًا ترضى لكنها على الأرجح لا تفعل .. »

سقط قلبى فى قدمى ، فأنا لا أتلقى إلا الأنباء الكئيبة منذ فترة .. لا أعنى بهذا أننى أثق بأن (لواما) هذه تملك الأذى لـ (برنادت) ، ولا أنوى التوسل لها لحظة ، لكنى فى الآن ذاته لا أحب ما أسمعه عنها .. ترى أية امرأة تلك التى تورطت معها يا صغيرتى ؟

قلت له عن طريق (ماسومو) طبعًا :

- « أريد أن أجدها .. »

فكر قليلاً ثم قال :

- « لم نرها منذ شهرين .. هى فى كهفها الآن .. وصدقنى أنت لن تحب أن تكون هناك .. »

ـ « يجب أن أجدها .. »

بدأ يتكلم بصوت بطيء كأنما يتلو صلاة مبهمـة .. طبعًا ليست معي كاميرا كي أنقل لك المشـهد ، لكن بوسعك أن تتخيله بشيء من الجهد .. الصوت الرتيب الخشن .. الظـلام الذي حل على القرية فجعل رؤية الأشياء كأنها حلم .. صوت (ماسومو) وهو يلاحقـه بترجمة فرنسية مفككة .. نظرات السود الذين لم تعد ترى في وجوههم إلا عيونهم البيضاء المتسعة المملوءة تبجيلاً ورعبًا ..

كان يقول :

ـ « الكهف الذي تريد أن تذهب إليه هو من عـالم الكوابيس .. إن الأرواح تزأر حوله ، والوطاويط لاتجرؤ على السكنى فيه فضلاً عن التحليق فوقه .. إنه حيث ينتهي الزمن وتبدأ الأبديـة .. الكهف الذي تريد الذهاب إليه يقع عند سفح الجبل الأبيض حيث يتعرى الجبل من الأشجار توطئة لأن يكتسي بالثلوج ..

- « الكهف الذى تبغيه تحفه الأخطار .. لو وقفت حيث أنت فتكت بك الشياطين .. ولو استمررت مزقتك الذئاب إلى أشلاء .. لو دخلت الكهف لوجدت (لواما) الشريرة أم السبعين شيطانا .. ولو لم تدخله خرجت هى إليك .. »

ربما تجد الدمية خارج الكهف .. الدمية التى وضعت فيها اللعنة التى أصابت زوجتك ، وربما لاتجد .. «القرار قرارك .. وليس بوسع كائن كان أن يتخذ لك القرار .. »

إنن هذه المرأة تتعامل بأسلوب (الفتيش) أو السحر بالمحاكاة ، وهو أقدم أساليب السحر ..

كنت أصغى له فى تململ .. يبدو أننى نسيت إحضار القنبلة النووية معى .. هذا الرجل لايتحدث عن امرأة ولكن يتحدث عن مسخ من الأساطير اليونانية .. ربما (ميدوسا) بالذات .. هذا الكلام يحوى الكثير جدًا جدًا من المبالغة ولا أراه على أى ضوء آخر ..

رباه .. و(برنادت) التى لا أعرف عنها شيئًا منذ فجر اليوم !

قلت له فى ضيق :

ـ « أنا لن أنتظر الليل كله هنا .. هذا صعب .. إن وقتى ضيق .. »

ضحك فراح لغده المتدلى يهتز كأنه عرف ديك ، وقال ما معناه :

ـ « ومن قال إنك قادر على بلوغ الكهف فى الصباح ؟ لا أحد يجد كهف (لواما) فى الصباح .. إن الساحرة تلعب بقواعدها ، وعليك لو أردت أن تجدها أن تبحث ليلاً ! »

نظرت فى ذعر إلى (ماسومو) ، لكنه ـ ذلك الشجاع ـ قال فى ثقة :

ـ « ثلاثة شلنات إضافية .. »

هذا نوع غريب من الشجاعة .. شجاعة توقظها النقود ..

طبعًا كنت على أستعداد لأى شىء يطلبه .. صحيح أن فكرة ارتياد جبل (كليمنجارو) فى الليل رهيبة ، لكن

الأسوأ منها أن أرتاده وحدى .. والأسوأ بما لا يقاس أن أقضى الليل هنا متوقعًا كارثة فى (سافارى) ..

لم تستغرق العملية وقتًا طويلاً ..

تزودنا من القبيلة ببعض الطعام - ما يكفينا يومًا - ومديتين . كان الكل مصرين على أنا لن نقدر على أن نفعل بهما شيئًا ، لكنى لم أستطع أن أستبعد فكرة حمل سلاح فى الجبل لمجرد أنها فكرة سخيفة ..

وكان الليل قد بدأ يعلن ملكوته حين وقف الزعيم وباقى رجال القرية يرمقوننا ونحن نغادر المكان متجهين إلى الجبل ..

آخر ما قاله الزعيم لى هو :

- « لا أضمن لكما السلامة لكن لدى نصائح : لاتستسلما للنوم هذه الليلة .. لاتثقا بأذنيكما .. لاتنظرا لأعلى مهما حدث .. ما يأتى من اليمين لاتفر منه إلى اليسار .. »

* * *

فيما بعد عرفت هذا الجزء من القصة ..

لقد وقف (سينوريه) فى ظلام الحجرة يرمق جسد (برنادت) الراقد على الفراش ، ومد يده يتحسس جبهتها .. حين رفعها كانت ملوثة بالعرق تمامًا ..

سأل الممرضة التى وقفت فى الظلام على بعد خطوات تنتظر أوامره ، وسألها :

ـ « منذ متى ؟ »

قالت فى توتر :

ـ « ربع ساعة .. »

ـ « هذا غريب .. »

وتراجع إلى الوراء وراح يفكر فيما ينبغى عمله .. مد يده يتحسس نبض الراقدة فى الفراش ، وبعد ثوان عاد يسأل الممرضة :

ـ « أين د . (عبد العظيم) ؟ »

ـ « لم أفهم ما كانت تقول بالضبط .. تقول إنه ذهب ليبحث لها عن علاج فى إحدى المدن الصغيرة .. الحقيقة أنها كانت تهلوس بكثرة .. »

هذا الأحمق .. ليس هذا هو الوقت الأنسب كى يترك الرجل زوجته ويفتش عن شىء ما .. خاصة وأن هذه التطورات الجديدة تحتاج إلى وجوده ..

عض على شفته السفلى وحك رأسه .. هذا غريب حقًا ..

* * *

لم أدر بشىء من هذا وأنا أمشى مع (ماسومو) فى الظلام بينما الغابة الجميلة قد صارت غابة أشباح ..

لا أدرى لماذا تحب الأشجار أن تبدو كالناس إلى هذا الحد ؟ إنها عادة سيئة صعب التخلى عنها ..

بدأ (ماسومو) يعرج ويترنم .. أغنية من أغانى الكيكويو تتحدث ـ كالعادة ـ عن البئر .. عن الحسناء

السمراء التى تملأ جرتها من البئر .. عن القمر الذى يعكس ضوءه الفضى على الحسناء السمراء التى تملأ جرتها من البئر .. أنا لا أفهم لغته لكنى متأكد من أن هذا هو الموضوع .. هل يوجد موضوع آخر ؟

كنا نمشى ونلهث ولا صوت إلا صوت أقدامنا ..

سألته وأنا ألحق به بين أشجار الغابة السوداء :

ـ « هل تعرف مكان ذلك الكهف جيدًا ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « وفى هذا الظلام ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « وهل هو بعيد ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « هل نبلغه الليلة ؟ »

ـ « نعم .. »

- « هل زرته من قبل ؟ »

- « لا .. »

- « هل أنت خائف ؟ »

- « نعم ! »

وهنا فقط توقف واستدار لينظر لى .. كان وجهه نصف المتوارى وسط الظلام والظلال ، يعكس رهبة وخوفًا لاشك فيهما .. عيناه توشكان على الهرب من محجريهما .. هنا فقط فهمت أنه يدارى خوفه الشديد بالغناء والكلمات عن حلمه المستحيل بالثراء ..

كان الحظ حليفنا حتى هذه اللحظة لأن القمر اكتمل فى منتصف السماء .. لن نحتاج إلى مصابيح .. يمكننا أن نمشى فترة لابأس بها ..

لقد اجتزنا حزام الأشجار وصرنا الآن نمشى وسط أرضية لا أشك فى أنها بركانية .. من بعيد أرى القمة الغربية للجبل الرهيب تلك التى يطلق عليها (الماساى) اسم (نجاجى نجاى) أو (بيت الله) .. كان السير سهلاً

هنا ولم يخطر لى ببال أننا نصعد بالفعل ، لكن مع زاوية انحدار تجعل الأمر كأنما نمشى فى سهل .. خطر لى أن الأمر بسيط حقًا وأننا بشىء من الجهد يمكن أن نصل قمة (كليمنجارو) هذه الليلة ، لكنى كنت واهمًا طبعًا لأن الجبل شامخ .. بل هو أعلى ذرى إفريقيا .. أنت تعرف خدع البصر هذه على غرار السراب فى الصحراء والملعقة المكسورة فى طبق به ماء ..

هنا بدأ (ماسومو) يتوتر .. توقف واستدار لى وهمس :

ـ « هذا المكان يعج بالشياطين .. أشعر بها فى كل صوب ، وأرى أن علينا التراجع قبل فوات الأوان ! »

★ ★ ★



هنا بدأ (ماسومو) يتوتر .. توقف واستدار لي وهمس :

ـ «هذا المكان يعج بالشياطين .. أشعر بها في كل صوب !! ..

١٠ ـ لكننا نقترب ..

قال (ماسومو) وهو يرتجف من الرعب كعادته :

ـ « ليس أمامك من سبيل إلا أن نرجع .. الحق أقول لك إن الرجوع خطر ، لكن البقاء حيث أنت معناه موت لا مناص منه .. »

فكرت فى كلامه فوجدت أن خياراتى واسعة فعلاً ..

وكان قرارى ـ الذى ليس صحيحًا بالضرورة ـ هو ألا نرجع ..

إن القبور تزخر بالشجعان كما قالوا ، وأنا أكره أن أبيت فى قبر آخر ، لكن لا خيار لى ..

* * *

قلت له فى سخرية عصبية بعض الشىء :

ـ « عم تتكلم بالضبط ؟ أنا لا أرى هذا الذى تراه .. »

رفع إصبعه إلى شفته السفلى بحركة مسرحية وقال :

ـ « صه !! »

بالفعل كان هناك ما يستحق هذا .. كانت هناك حركة معينة مريبة من حولنا ..

الأرضية البركانية والظلام الذى يجعله ضوء القمر محتملاً إلى حد ما .. لكننا نرى تلك الأجسام الغامضة تتحرك من حولنا .. تنساب بنعومة .. أحيانا تتواثب .. أحيانا تتسابق ..

ما هى ؟

ما حقيقتها ؟

أنا لم أر شياطين من قبل ، لكنى أرجح أنها لا ترى أو على الأقل لا تبدو كهذا ..

كانت تمضى فى كل مكان قادمة من الشمال .. تنساب من حولنا .. بسرعة أحيانًا وأحيانًا ببطء ، ولكنها دومًا فى الظلام أو تتحرك أسرع من إدراكك .. مستحيل أن تستوعبها ، وتتمنى لو تجمد الكادر ثانية واحدة لتفهم ماذا يدور من حولك ..

قلت له وأنا أتراجع للوراء خطوة :

ـ « حيوانات برية .. ربما تياتل أو غزلان .. »

قال وقد بدأ يرتجف كورقة الشجر :

ـ « لا .. أنت تعرف كما أعرف أنا أن الأمر ليس كذا .. »

ثم أضاف وهو يعتصر رأسه بيده :

ـ « فلنرجع يا سيدى .. »

ـ « أنا لن أتراجع أمام أوهام .. لو كان ما تتكلم عنه أسرة من السباع لفكرت مليا ، لكن الأمر لا يزال مبهمًا إلى حد غريب .. وشلناتى التى ستصير لك ؟ »

كنت أتوقع أن يرد الرد التقليدى : إلى الجحيم أنت ومالك ، لكن التردد بدا عليه .. هذا رجل عملى واقعى حقًا ..

ـ « شلن إضافى ؟ »

ـ « موافق .. »

لن أدهش لحظة لو اكتشفت فى نهاية الأمسية أنـه على اتفاق مع (لواما) وزعيم القرية وأشباح الجبـل من أجل اقتسام أموال السائح الأبله الذى هو أنـا .. وأن كل هؤلاء الراقصين حولى ممثلون ..

* * *

ـ « ما يأتى من اليمين لاتفر منه إلى اليسار »

* * *

سمعت هذه الكلمات تتردد فى ذهنى حاملة تلك الطـابع الغريب .. كأنها نبوءة سلحرات (شكسبير) الثـلاث حيـن قابلن (مكبث) .. تلكم الكلمات الفارغة التى يقولها العرافون، والتى يتضح فيما بعد أنها عميقة كآبار الجحيم ..

قلت لـ (ماسومو) وأنا أتحرك نحو تلك الأشباح :

ـ « هلم معى .. ما يأتى مـن اليمين لاتتفاداه بـأن تتجه إلى اليسار هذا سهل .. »

قال فى غباء وهو يتواثب مستعدًا للفرار :

ـ « ماذا تعنى ؟ »

ـ « نصيحة زعيم القرية .. هذه الأشباح تتجه نحونا من اليسار ولسوف نتجه إلى اليسارِ لنقابلها لا لنفر منها .. »

ومشيت وأنا أضغط على أسنانى نحو تلك الأجسام المظلمة المتدافعة نحونا .. كأنها سرب من ذباب ليلى عملاق لا يمكنك معرفة كنهه .. توقعت أن يصطدم شىء بوجهى أو أطير فى الهواء بضعة أمتار لأهوى على عنقى .. لكن لا .. لا شىء من هذا .. كأننى كنت اجتاز سحابة من البخار لا أكثر ولا أقل ..

ـ « (ماسومو) ! لاتخف ! الأمر أسهل مما توقعنا .. »

كنت أجتاز السحابة .. وكنت أشعر بأننى أدنو من الخلاص .. لكن أين ..

ـ « (ماسوموووووووووووو) !! »

لكنه لم يكن معى .. لم يكن على أية مسافة قريبة منى ..

هناك نقطة ما فى كل حملة استكشافية يفر فيها

الدليل (لأن الأرواح غاضبة) .. لكن (ماسومو) ليس من هذا الطراز من الأدلة .. كما أننا لا نستكشف شيئًا .. المفترض أننا نبحث عن تلك المرأة فى أماكن يعرفها هو جيدًا ..

أين ذهب هذا الأحمق ؟

* * *

سأل (سينوريه) الطبيبين بعد ما فرغا من فحص المريضة :

ـ « هل تريان ما أراه ؟ »

قال أولهما وهو رجل قصير القامة يبدو مذهولا على الدوام :

ـ « لا يوجد حل آخر .. »

ثم إن الآخر وهو من الطراز البدين النظيف متورد الخدين الذى يذكرك بدمى الأطفال قال :

ـ « بالمناسبة أين زوجها ؟ »

قال (سينوريه) وهو يضع يديه فى جيبى معطفه :

ـ « لا أدرى .. إنه فى مكان ما على الأرجح .. »

قالت (برنادت) بصوت واهن مبلل بالعرق :

ـ « ذهب إلى الجبل ليجد المرأة .. »

كانت تخرف كثيرًا فى الآونة الأخيرة ، وقد تكلمت عن الثعابين وعن التنين تحت الفراش ، والأقزام الخضر الذين يخرجون من الجدار ، والماء الذى تحول إلى دم فى الكوب أمس .. لهذا بدا كلامها عن المرأة فى الجبل متوافقًا جدًا ومناسبًا ..

وضع (سينوريه) يده على معصمها الصغير على طريقة (نامى ـ يا ـ ملاكى) .. وقال للطبيبين :

ـ « ما رأيكما ؟ »

قال القصير المذهول :

ـ « لابد من العمل حالاً .. »

هنا جاء (ستيجوود) كما توقعوا .. كان أول سؤال وجهه فريدًا من نوعه يدل على عبقرية هذا الرجل :

ـ « بالمناسبة .. أين زوجها ؟ »

قال (سينوريه) وهو يغمز بعينه بأسلوب من خبر الدنيا وطبائع الرجال :

ـ « الأزواج ! إنك لاتجدهم أبدًا حين تريدهم .. وهم لا يستغنون عن المرح ولو من أجل زوجاتهم .. شاب كهذا مختف فى العاشرة مساءً .. فأين تحسبه يكون ؟ »

* * *

ـ « أنا هنا يا أحمق !! »

كنت أرددها بلا كلل .. ومن حين لآخر أصيح صيحتى الدرامية الطويلة :

ـ « (ماسوموووووووو) !! »

كنت أفتش فى كل مكان عن الحمال الذى تركنى عند سفح جبل (كليمنجارو) وسط هذه الأشياء المتطايرة التى لا تعرف حقًا نوعها .. تعرفون بالطبع هذا الطراز من القصص ..

هنا سمعت صوتًا واهنا ـ لكنه أكيد ـ قادمًا من مكان ما .. مكان تحت مستواى ..

ـ « دكتوووووووور »

هرعت أبحث عنه .. فوجدت أن تحت مستوى مجموعة لا بأس بها من الحفر أو الوهاد .. وكان الصوت الواهن صادرًا منها .. الآن القصة واضحة .. لقد سقط المغفل فى حفرة وهو يحاول اللحاق بى بحماسة ..

يجب أن أكون حذرًا .. مشيت بضع خطوات حتى صرت أقرب ما أكون إلى الصوت ..

ـ « (ماسومو) .. المفترض أننى بقربك ، لكن الظلام دامس .. هل ترانى أمام صفحة السماء ؟ »

من جديد تردد الصوت الواهن :

ـ « أراك يا دكتور .. تقدم بضع خطوات .. ثلاث خطوات لا أكثر .. »

خطوة .. ثم ..

ـ « هلم . خطوة أخرى .. »
خطوة ثم ..

ـ « خطوة أخرى .. »

خطوة أخرى و ...

ـ « مد يدك .. ساعدنى .. إن ساقى مكسورة على ما أظن .. »

مددت يدى ، وفى اللحظة التالية أدركت أننى أفقد توازنى وأننى أميل إلى الأماااااام ..

قمت ببضع حركات مضحكة كالتى يعملونها فى أفلام (توم وجيرى) .. استخدمت ذراعى كمروحة للتوازن .. رفرفت بهما عدة مرات ..

هنا شعرت بيد كالفولاذ تطبق على ساعدى ، ولم تكن قادمة من المكان الخطأ لو كنت تفهم ما أعنيه .. لم تأت من الحفرة بل من خارجها ..

وفى اللحظة التالية وجدت أننى على الأرض خارج الحفرة ، وأن امامى الساقان النحيلتان العضليتان لـ (ماسومو) ..

قلت فى دهشة وأنا ألتقط أنفاسى :

ـ « أنت كنت فى الحفرة .. »

قال فى جدية :

ـ « بالطبع لا يا دكتور .. كنت أبحث عنك وراء تلك الصخور لأن استغاثتك جاءت من هناك .. »

ونظرت له فى ذهول ونظر لى فى حيرة ..

ـ « لا تثقا بأذنيكما »

هكذا قال زعيم القرية ..

يبدو أن نصائحه أهم وأدق مما تصورنا ..

* * *

بعد دقائق بدا أننا لا نتحرك على الإطلاق ..

مازلت أرى قمة الجبل الغربية الرهيبة .. ويبدو لى أن هذا المكان ممتد إلى الأبد .. لكننا نصعد .. بالحقيقة نصعد .. الهواء صار شحيحا كاليورانيوم ٢٣٥ والتنفس صار أعسر فى كل ثانية .. ثم إن الإرهاق بدأ يلعب بنا وبرءوسنا .. لم أذق الخمر قط لكننى الآن أفهم شعور الثمل .. أفهم كيف يقود الثمل سيارته بسرعة

مائة وستين كيلومترا ليحاول المرور بين كشافى شاحنة قادمة فى الاتجاه المقابل .. القرارات كلها غبية بطيئة خاطئة .. إن المخ ـ كأى عضو آخر ـ يحتاج إلى الجلوكوز والأكسجين ، وأنا أفتقر الآن إلى الاثنين ..

كان الظلام دامسًا .. إنها الثالثة صباحًا .. الطقس يزداد برودة وأنا لم أضع فى الحسبان أننى سأمشى فى جبل (كليمنجارو) بعد منتصف الليل .. أقول (أمشى) لأن التسلق عمل آخر لم نمارسه قط حتى هذه اللحظة .. مازلنا فى السفح ، والجبل عصى صامد ..

أمامنا غابة من الأشجار المتشابكة ..

قلت لـ (ماسومو) :

ـ « أرى أن نتوقف هنا بعض الوقت .. إننى ميت من التعب وهذه الغابة ستقضى علينا .. »

لكنه كان يرى أن الاستمرار ضرورة ملحة ..

وهنا يجب أن أقول إننى بدأت أحب هذا الفتى .. بل إننى لسعيد لأنه معى .. وهذه من الخصائص الغريبة للروح البشرية ، حتى إننى لن أندهش لو أننى شعرت براحة مع سحلية (إجوانا) أجبرت على مرافقتها .. إن كل إنسان مهما صغر شأنه يحوى طاقة روحية إنسانية يمكنك أن تحبها متى دنوت منها .. صحيح أن هناك أناسًا ميئوسًا منهم لايمكن أن تحبهم مهما فعلت .. هؤلاء هم أغبياء الروح .. أصحاب الأرواح المغلقة .. هذا هو التفسير الوحيد الذى أجده فى هذه اللحظة بالذات ..

مشينا مترددين وسط الغابة ، وكانت سحابة تعبر أمام القمر مما جعل الأمور سيئة بحق ..

سمعت صوتًا من أعلى فنظرت فى توتر ..

رياه !

لم تكن هذه الغصون جرداء ..

إن عليها أكبر وأفظع مجموعة وطاويط رأيتها في حياتى ..

كيف لم تصح بعد ؟ كيف لم تشعر بنا ؟ لا أدرى ..

مشينا ونحن نلهث وننظر لأعلى .. الوطاويط مصاصة الدماء لا وجود لها فى إفريقيا .. لكن لابد من تذكر النكتة القديمة : هل تعرف هذه الوطاويط هذه المعلومة ؟ لماذا لا تكون قد جربت الدم ووجدته لذيذًا ؟

فجأة ترددت فى ذهنى عبارة كان لها صدى مدوٍّ كما فى الأفلام السينمائية

ـ « لا تنظرا لأعلى مهما حدث .. »

وكان هذا كافيًا كى أنظر إلى أسفل ...

* * *

بدأت القشعريرة تهز كيان (برنادت) هزًا عنيفًا .. ارتفعت حرارتها بشكل غير مسبوق ، وفكرت الممرضة فى أن تحقنها بالـ (دانترولين صوديوم) كما جرت السياسة الأخيرة .. فيما بعد عرفت أنها - (برنادت) لا الممرضة طبعًا - كانت تردد دون انقطاع :

- « (علاء) .. أين هو ؟ »

تساءلت إحدى الممرضات :

- « صحيح .. أين زوجها ؟ »

قالت الممرضة الأولى همسًا وهى تملأ المحقن :

- « يخونها طبعًا .. لماذا يترك زوج زوجته وهى فى هذه الحالة ؟ »

قالت الممرضة الكينية مثلاً يشبه مانقوله نحن : (يا مآمنة للرجال .. يا مآمنة للمية فى الغربال) ..

وأمسكت بمعصم (برنادت) كي تقوم صاحبتها بتثبيت جهاز المحلول في القناة الوريدية ..

هنا دخل (سينوريه) الغاية المركزة، وقال في حزم:

ـ « لا .. لا داعي للـ (دانترولين صوديوم) .. إننا مستعدون الآن .. »

* * *

كانت الأرض مكسوة بالثعابين !

بساط كامل سميك من الأفاعي والثعبان والأصلات والـ .. لست خبيرًا في الفوارق بين هذه الأنواع كما تعرفون .. ثم إنني لست واقعًا في هواها منذ قصتي مع عبدة الأفاعي في (سافاري) الأولى .. كلها مخلوقات تزحف وتصدر فحيحًا وتخرج لسانًا مشقوقًا في جشع ..

مشهد رهيب ، الأفظع فيه أنك تتبينه بكثير من

العسر فى هذا الظلام ، ولولا ضوء القمر لكانت نهايتنا ..

ونحن كنا سنخطو فوق هذاالبساط بعد ثوان !!

صحت وأنا أجذب (ماسومو) من معصمه :

- « لا تنظر لأعلى يا أحمق .. لقد طلب زعيم القرية ألا ننظر لأعلى .. كان هذا كمينًا شنيعًا .. »

وثب للوراء كما يفعل أى إنسان محترم يرى تحت قدميه ثعبانًا ..

قلت له وأنا أرتجف :

- « واضح أننا يجب أن نلتزم حرفيًا بتعليمات الزعيم .. »

وبدأنا نتراجع دون انتظام خارجين من الغابة الرهيبة التى يستحيل عبورها .. ثعبان متحمس رفع نصفه الأعلى فى الوضع (الناشر) الشهير ، وراح يصدر فحيحًا ..

وقبل أن نفهم وثب فى الهواء ، كأنه سهم ينطلق من قوسه نحو وجهينا ..

فى اللحظة التالية وجدته على الأرض يرتجف وقد تمزق نصفين ، وكانت المدية فى يد (ماسومو) ملوثة بالدماء .. إن سرعة رد الفعل لدى الفتى خرافية حقًا ..

ومن دون كلمة أخرى رحنا نجرى خارجين من غابة الرعب هذه .. سندور من حولها بالتأكيد ..

قلت لاهثًا وأنا أجد السير :

ـ « (ماسومو) .. هذا المكان ليس واردًا فى أى وصف قرأته أو سمعته عن جبل (كليمنجارو) .. إن له جغرافية خاصة به .. »

ـ « الأرواح .. السحر .. »

قالها فى بساطة وأردف :

ـ « لاتنس أن المكان ملعون .. نحن فى قلب معقل الشياطين ذاته »

وكنا الآن قد صرنا خارج الغابة وصار علينا أن ندور حولها ..

ونظرت إلى الشرق .. لقد بدأ شريط من الدماء يلوث الأفق ..

إن الفجر قريب ..

ربما أنا أفضل هذا ...

* * *

١١ ـ من السر الرهيب ..

الآن نغادر الغابة ..

ندور حولها .. كان (ماسومو) متوترًا كالقط ، أما أنا فقد كنت متعبًا إلى حد لا يسمح لى بالتوتر ..

قلت له وأنا أنثنى ممسكًا بركبتىّ فى وضع لاعبى الكرة إياه :

ـ « لابد من الراحة .. لابد .. إن هذا الكهف فى (ألاسكا) بالتأكيد .. »

ـ « بل هو دان جدًا يا دكتور ... »

ـ « لكن لابد من الراحة .. »

كان الجو البارد والهواء الخفيف ناقص الجودة ، مما يغريانى بأن أرقد على الكلأ الجاف وأغمض عينىّ .. بالفعل أرحت رأسى إلى صخرة ، وقلت له وأنا أرتجف طلبًا للدفء .. ضامًا قميصى على صدرى :

ـ « عشر دقائق .. أعدك بعشر دقائق لا أكثر .. »

ـ « كما تريد .. »

وبداعى الحذر الغريزى ، أطبقت يدى على مديتى ، وأغمضت عينى اللتين تزن جفونهما أطنانًا .. شعرت بجفنى باردين كأنما هما «قطعتا لحم فى نافذة عرض جزار » .. من قال هذا التعبير ؟ آه .. البروفسور (هجنز) فى رائعة (برنارد شو) (سيدتى الجميلة) .. طبعًا لابد أن يكون التعبير أجنبيًا لأن جزارينا لا ... عم كنت أتكلم .. نسيت ..

هناك أشباح ليلية .. هناك ثعابين .. المرأة التى تدعى (لواما) .. (برنادت) هل ؟ هل ماذا ؟ نسيت مرة أخرى .. ماذا دهانى ؟ لابد أننى نائم أحلم الآن .. لاتفسير إلا هذا ..

ماذا قال لنا زعيم القرية ؟ قال : ـ « لا أضمن لكما السلامة لكن لدى نصائح : لا ...... الليلة .. لاتثقا بأذنيكما .. لا تنظرا لأعلى مهما حدث .. ما يأتى من اليمين لاتفر منه إلى اليسار .. »

أربع نصائح جليلة لكنى نسيت الأولى مثلما يحدث فى قصص الأطفال ..

فتحت نصف عين وملت على (ماسومو) أسأله :

- « ما كانت تلك النصيحة التى نسيتها من نصائح الزعيم ؟ »

لا أدرى إن كنت سألته أم لا .. أحسبنى فعلت .. وسمعته يغمغم :

- « هه ؟ سأحاول أن أتذكـ ... »

هنا فتحت عينـى بالكـامل .. واسـتطعت أن أرى (ماسومو) جالسًا جوارى مستندًا على مرفقه وهو يحلم جالسًا .. وعلى بعد مترين رأيت وحشًا مخيف الشكل يتشمم المكان فى حرص وجشع ..

وأكمل (ماسومو) كلامه مغمض العينين :

- « ألا نخلد إلى النوم !! »

هنا كنت قد وثبت من مكانى ، وصحت صيحة عظيمة ..

وركلت هذا الشىء فـى خطمـه .. ثم لوحت بالمديـة محاولاً أن أطعنه .. لكنه أطلق عواء رهيبًا ، وسـال اللعاب من شدقيه ، وانطلق لايلوى على شىء ..

بينما كان وعيى قد عاد إلىّ وتذكرت هذا الوحش .. إنه ضبع أشهب .. أضخم ضبع رأيته فى حياتى ، وتذكرت ما قالوه من أن الضبع يتمتع برائحة أنفاس كريهـة .. إننى أشم الآن الدليل على صحة هذه المقولة ..

كان (ماسومو) قد صحا من نومه وفهم كل شىء بسرعة ..

ـ « ضباع ! من الخير ألا نتلكأ كثيرًا ! »

قلت له وأنا أتحسس ثيابى :

ـ « نسينا نصيحة الزعيم .. إن الرجل دقيق جدًا .. »

كان الأدرينالين ـ أو (الإبينفرين) كما علمنا أساتذة علم الأدوية ونسينا ـ قد تدفق فى دمنا ، وبشبه معجزة لم يعد من نعاس فى عينينا ..

مشينا بضع دقائق .. ونحن نرتجف من البرد ..

كنت الآن أستطيع أن أرى أولى إمارات الجليد التى استمد منها الجبل الأبيض اسمه .. لقد صارت الأرض مغطاة بطبقة رقيقة منه واضح أنها ستزداد سوءًا بعد قليل ..

كيف يتحمل هذا الفتى كل هذا البرد بسرواله القصير ، ومن الواضح أنه إفريقى لا يشعر بالراحة إلا فى الحر ؟ حقًا كل ميسر لما خلق له ..

على أنه شعر بما يدور فى ذهنى فقال وهو يرتجف :

ـ « شلنان إضافيان .. »

ـ « لك كل ما فى جيبى .. لكن اخرس قليلاً .. ليس الوقت وقت الاطمئنان على حسابك فى المصرف .. »

الآن نرى الكهف رأى العين ..

نراه وسط الثلوج .. وقد حفت به آثار أقدام حيوانات ما ..

* * *

« الكهف الذى تبغيه تحفه الأخطار .. لو وقفت حيث أنت فتكت بك الشياطين .. ولو استمررت مزقتك الذئاب إلى أشلاء .. لو دخلت الكهف لوجدت (لواما) الشريرة أم السبعين شيطانًا .. ولو لم تدخله خرجت هى إليك ..

« ربما تجد الدمية خارج الكهف .. الدمية التى وضعت فيها اللعنة التى أصابت زوجتك ، وربما لاتجد .. « القرار قرارك .. وليس بوسع كائن كان أن يتخذ لك القرار .. »

* * *

قلت لـ (ماسومو) :

« هل هذا هو الكهف ؟ »

لكنى ما كنت بحاجة إلى هذا السؤال .. من الجلى أن هذا هو الكهف .. حين ترى فيلمًا إيطاليًا من بطولة (مارشيللو ماستروياني) ولا تفهم حرفًا مما يقال فيه ، لا تسأل أبدا إن كان هذا هو البطل أم لا ...

ابتلع ريقه وراح يرتجف كالعادة لا أدرى من الخوف كالعادة أم من البرد ..

قبضت على المدية ، وهمست :

ـ « سأدخل وحدى .. ليس من حقى أن أحملك على الدخول .. »

قال فى لامبالاة :

ـ « لا فارق .. إن خارج الكهف مخيف كداخله .. لو صدق ظنى فنحن ميتان الآن .. »

كان ضوء الفجر الشاحب يغلف كل شىء الآن .. لم تعد الرؤية عسيرة .. أين كنت فى مثل هذا الوقت أمس ؟ لابد أننى كنت أتقلب فى فراشى غارقًا فى العرق .. أضع الخطط كى أكون هنا .. الآن ..

سألته :

ـ « هل يمكن أن نجد الدمية ؟ »

ـ « مستحيل .. إن المرأة لن تضعها فى موضع سهل .. »

« سادخل وحدى .. »

وفى صمت مشيت نحو الكهف .. المدية فى يدى ورأسى عامر بأفكار عديدة ليس بينها ـ صدق أو لاتصدق ـ الخوف .. لابد أن تأثير نقص الأكسجين جعلنى أميل إلى الاستهتار واللامبالاة ، بالإضافة إلى أن الموت لم يبد لى سيئًا إلى هذا الحد الآن .. إن الموت سبات برغم كل شىء ..

ومن قال إن المرأة ستقتلنى ؟

وجاءت الإجابة من عقلى الباطن :

ـ « كل شىء يقول ذلك .. أنت تعرف هذا .. كل هذا المناخ المتوتر المنذر بكارثة .. »

هذه الأشياء المكسوة بالجليد خارج الكهف .. المعلقة بحبال تجمدت بدورها .. ليست حليًا .. إنها جماجم .. جماجم متجمدة .. هذه الرموز للأرواح تضعها حولها موكلة إياها بأن تحرس لها المكان ..

غمغمت بالمعوذتين وأنا أتقدم نحو الكهف الرهيب ..

سأنتصر عليك أيتها المرأة .. لأننى على حق .. لأننى الخير ..

وأنت ما أنت ؟

لكنى - قبل كل شىء - سأطلب منك أن ترحمى الطبيبة التى حاولت أن تساعدك لكن الظروف خذلتها ..

* * *

كان الكهف مظلمًا بالداخل ..

هذا شىء مقبول ..

لكن عينى اعتادتا الظلام بعد قليل ، وبدأت أرى حدود الأشياء ..

كانت هناك جماجم فى كل صوب وقدر كبير - هذا يناسب صورة الساحرات فى خيالنا - لكن السحرة الأفارقة لا يطهون فيه أرجل الوطاويط وقلوب البوم لو أن هذا خطر ببالك .. إنهم يستخدمون هذه القدور للدق ، كما نستعمل نحن الهاون ..



كان هناك جماجم فى كل صوب وبقدر كبير ... هذا يناسب صورة الساحرات فى خيالنا !! ..

إن المكان يفوح برائحة (الداوا) .. (الداوا) التى يؤمن الأفارقة أنها تفسر كل شىء فى الكون ..

كل شىء كان مكسوا بطبقة رقيقة من الجليد ، لهذا كان الأمر أشبه بأن تحشر رأسك فى فريزر ثلاجتك تشعر بأن أطرافك تتجمد ، فتهيب بالأدرينالين أن يتدفق أكثر ليشعرك بشىء من الدفء ..

تدور بعينيك فى المكان متوقعًا الهجمة فى أية لحظة ..

ثمة مقعد منحوت فى الصخر فى طرف المكان وارتفاعه لايقل عن ثلاثة أمتار .. هذا نوع من العرش الذى لابد أن الساحرة تعتليه حين يلقاها المعذبون ..

المقعد مكسو بالثلوج .. ما هذا ؟ هل أنا فى وكر السيد (صفر) فى قصص الوطواط ؟ كيف تتحمل المرأة مكانًا كهذا ؟

مشيت إلى المقعد وحاولت أن أتسلقه ، هنا سقطت على الأرض ..

لقد عاقنى شىء عن التقدم ، وتكفل الجليد بجعلى أهوى على الأرض ..

الآن أنا على الأرض الثلجية فعلاً، وأشعر بشىء ما .. شىء رهيب .. شىء زلق لكنه يحمل الملامح الخارجية لـ .. إنسان ؟

إنه بارد كالثلج صلب مثله ..

هنا سمعت صوتًا من فوقى ..

★ ★ ★

بعد ما توقف قلبى لجزء من الثانية كما هو معتاد فى هذه الأمور ، رفعت رأسى فوجدت (ماسومو) .. كان يقف هناك وقد اتسعت عيناه هلعًا ورعبًا .. كان يوشك على الموت بصدمة عصبية ..

لقد دخل الكهف فلم ير لى أثرًا فى البداية ..

قلت له هامسًا :

ـ « ساعدنى .. هناك جثة هنا .. »

ـ « والمرأة ؟ »

ـ « لا أدرى .. »

انحنى بيد مرتجفة مدها ليمسك الجسد الجليدى .. لم يكن ثقيلاً لكنه متصلب تمامًا .. فحملناه كما نحمل تمثالاً إلى خارج الكهف .. حيث كان ضوء الفجر قد اكتمل ..

ووقفنا ننظر إلى اكتشافنا ..

استطعت أن أميز أن هذا التمثال المتجمد هو لامرأة إفريقية عجوز .. كانت منحنية على نفسها وقد فتحت فاها ألما فى صرخة صامتة ..

ـ « (لواما) !! »

قالها (ماسومو) وهو يثب إلى الوراء فى هلع ، فقلت لاهثًا :

ـ « هذا يبدو واضحًا .. ومن الواضح أنها لم تعد تؤذى بعوضة .. »

ـ « ولكن كيف ؟ »

نظرت إلى ساقها التى اتخذت وضعًا تشريحيًا مستحيلاً ، وارتجفت وقد فهمت ما حدث :

ـ « كسر .. كسر من كسور المسنين التى تنجم عن هشاشة عظامهم .. لابد أنها انزلقت من فوق عرشها الشامخ وتهشمت ساقها .. ربما عنق الفخذ كذلك .. لكن المسنين يجدون من يعنى بهم على الأرجح ، أما هذه فلقيت أبشع نهاية يمكن تخيلها .. قضت الساعات على أرض الكهف تصرخ .. تطلب العون ، وفى النهاية تجمدت حتى الموت .. »

غطى وجهه فى استبشاع وهتف :

ـ « كلا .. (لواما) لا يمكن أن تموت ! »

ـ « إنها ليست خالدة يا بنى .. اللّه (تعالى) وحده لايموت .. حتى لو كانت (لواما) هذه تنثر الذعر فى كل صوب .. »

والمؤسف أن ميتتها الرهيبة أعجزت كل مواهبها السحرية .. لا أستطيع إلا أن أتعاطف مع امرأة عجوز تموت وحدها متجمدة ..

صاح (ماسومو) فى رهبة :

- « وكل ما مررنا به .. وكل هذه الأخطار ؟ »

- « لا أنكر أن المنطقة ملعونة .. لابد أن قوى هذه المرأة لم تمت معها .. »

وكنت الآن غارقًا فى التفكير .. لن أعرف أبدا علاقة هذه المرأة بـ (برنادت) .. لن أعرف دورها فى القصة .. لقد أرسلت طلقتها وتوارت فى الظلام ، ولم يعد بوسعى منع الطلقة التى غادرت البندقية فعلاً ..

نظرت إلى (ماسومو) وقلت هامسًا :

- « الآن .. نعود .. »

* * *

(نعود) هذه استغرقت ساعات عديدة بالفعل ..

العودة إلى قرية الكيكويو الذين أصروا على أن المرأة حية لم تمت .. قالوا إنها تتظاهر بهذا فقط ..

ثم (الشعبطة) فى قطار متجه إلى (فوى) .. ثم النزول فى المحطة فوداع الطبيب .. ودفع كومة الشلنات لـ (ماسومو) مع جزيل الشكر ..

ولحقت بطائرتنا التى كانت تستعد بالفعل للرحيل حين وصلت أنا ..

الآن أدخل وحدة (سافارى) مرتقبًا ما هو أسوأ ..

يلقانى (سينوريه) هناك فيقول لى وهو يبتسم :

ـ « لا تقلق .. كل شىء على ما يرام .. »

كنت فى أسوأ حال كما لك أن تتوقع ، وعصبيًا إلى حد لا يمكن وصفه .. لهذا فهمت أنه ما دام (كل شىء على ما يرام) فقد كان (شىء ما خطأ) قبل هذا ..

قال (سينوريه) محتفظًا بنفس الطريقة المبالغة فى التفاؤل والتبسط :

ـ « تجمع صديدى فى العظام .. هـذه هى القصة كلها .. »

نظرت له فى غباء ؟ عم يتحدث بالضبط ؟

قال وقد لمح دهشتى :

ـ « نعم .. تجمع صديدى فى العظام .. كانت الأمور فى بدايتها بلا أية علامات واضحة فقط كانت (برنادت) تتعامل مع بؤرتها الالتهابية بالقشعريرة والرجفة .. بعد رحيلك ارتفعت درجة حرارتها ، وبدأت الأعراض المحددة لشكواها ، وارتفع عدد كريات الدم البيضاء .. أنت تعرف أن كل مرض فى بدايته قد يكون لغزًا .. الكوليرا تبدو إسهالاً غامضًا والطاعون الدملى يبدو خراجًا فى خن الفخذ ..

« لقد أجرينا كل الاختبارات الممكنة فى البداية لكننا لم نفحص عظامها بالأشعة .. وحين أجرينا مسحًا على العظام عرفنا أن التهابًا شديدًا كان هنالك دون أن نعرف ..

« لقد أجروا جراحة بسيطة لها .. مع جرعات لا بأس بها من المضادات الحيوية المناسبة .. وهى الآن فى خير حال .. »

سألته وأنا أحاول استيعاب هذا كله بعقل لم ينم أو يأكل تقريبًا منذ يومين :

ـ « ولكن لماذا الآن بالذات ؟ »

ـ « لسنا متأكدين .. لكنها تعتقد أنها وخزت نفسها بمسمار قبل الحادث بأيام .. تقول إنها طهرت موضع الوخزة ونسيت الأمر .. »

هذا يعطى للأمور منحى لم أتوقعه وإن كان عقلى يقبله ..

ـ « وهى بخير الآن ؟ »

ـ « بخير كما قلت لك .. ولكن قل لى .. »

ثم حك لحيته فى فضول وتساءل :

ـ « أين كنت طيلة هذا الوقت ؟ لقد اختفيت دون تفسير .. ألم أقل لك إنك ذئب يرتدى ثياب حمل ؟ »

* * *

- « (علاء) .. أريدك معى لحظة واحدة .. »

كنت منهمكًا فى المختبر ولاوقت لـدى .. لكـن (برنادت) - التى استعادت لياقتها تمامًا بعد شهر من هذه الأحداث - كانت متلهفة لحوحًا بشكل لايمكن مقاومته ..

طلبت الإذن بالانصراف لدقائق ثم مشيت معها .. كانت متجهة إلى عيادة الأطفال وهى تعتصر كفى فى لهفة ..

قلت لها فى شىء من ضيق :

- « صحيح أننا متحابان ، وأننا نحب أن نكون معًا أطول وقت ممكن ، لكن لا داعى لأن نذيع هذا على شاشة التلفزيون .. »

- « ش ش ش ش ش ! »

قالتها واضعة إصبعها على فمها فى دلال ، وفتحت باب العيادة لأجد أمامى امرأة سوداء مع طفلها ..

وكانت تضحك ضحكة لا بأس بها .. بصرف النظر عن منظرها الغريب ..

ثياب غريبة جدًا ملطخة ببول الأبقار الجاف .. وقد غرست فى شعرها الكثير من الريش الملون وغطت صدرها بالعقود الملونة ، وعلقت فى أذنيها طنًا من الأقراط الخشبية التى تستطيل لها شحمة الأذن حتى لتوشك على التمزق .. يدا المرأة مخضبتان بلون أحمر كريه يوحى بأنه دم برغم أن هذا غير ممكن ..

قالت (برنادت) لتقطع على الاستنتاجات :

ـ « أقدم لك (لواما) من (فوى) ! »

نظرت إلى المرأة فى دهشة .. إذن أنت ؟ ولكن كيف ؟

قالت المرأة مصححة الاسم :

ـ « (لوجانا) .. (لو .. جا .. نا) .. »

قالت (برنادت) وهى تشير إلى الممرضة التى تقوم بالترجمة :

ـ « وجدتها أمامى فذهلت .. ثم عرفت أنها جاءت بطفلها الثانى على سبيل الاعتذار لى .. كانت ملهوفة ثكلى لهذا لم تنتق كلامها لحظة الحادث .. لكنها بعد أن هدأت الأمور راجعت نفسها ، ووجدت أننى حاولت أن أساعد .. لم أكن أنا سبب موت الغلام .. وهكذا جاءت لى تقول إنها سامحتنى .. وتطلب منى علاج صغيرها .. »

عدت أكرر الاسم من جديد :

ـ « (لوجانا) ؟ »

ـ « نعم .. موظفة الاستقبال سمعته (لواما) .. وهكذا لم يكن فى (فوى) إلا امرأتين تدعيان (لواما) ومضيت أنت فى الشوط إلى نهايته .. إن (لوجانا) غريبة المنظر لكنها ليست ساحرة إن كنت تفهم ما أعنيه .. بالنسبة للكيكويو هى مجرد امرأة متبخترة مبالغة فى التأنق »

كنت أشعر بهذا من البداية ..

كما قلت إننى لم أبتلع أن تقطـع ساحرة عجوز كل هذه المسافة إلى (سافارى) لعلاج طفلها .. ليس هذا سلوك الساحرات الشريرات .. كما أننـى حين لمحت جثتها المتجمدة لم أبتلع قط أن تكون هذه العجوز ـ التى تستحق دخول دار مسنين ـ أمًا لغلام .. كيف ؟ ربما فاتنى أن أضع هذا التساؤل موضـع التحقيق ، لكنـه خطر لى بالتأكيد ..

نظرت للمرأة فوجدتها تضحك كاشفة عن أسنان شديدة البياض ..

ونظرت لـ (برنادت) فرأيت أجمل (تشنيكة) رسمتها منذ عرفتها ..

يبدو أن الكابوس انتهى ..

★ ★ ★

ـ إلى قرية الكيكويو فى سـفح الجبل الأبيض جـاء رجلان ..

قــال أحدهمــا للزعيــم إنهمــا ذهبا إلــى الكهــف الذى زعـم الشــاب الأبيض أنــه وجد جثة الساحرة فيـه ..

ـ « قال إنه ترك الجثة المتجمدة خارجه .. »

وأضاف صاحبه :

ـ « لا توجد أية جثة أمام الكهف .. »

سـألهما الزعيم فـى توتـر وهـو ينظـر إلـى الأفــق الغربى حيث قمة (كليمنجارو) المهيبة :

ـ « هل التهمتها الوحوش ؟ »

ـ « أنـت تعرف مثلمًا نعرف أن هذا لم يحدث .. لا أحد يمكن أن يدنو من (لوامـا) أم السبعين شيطانًا حية أو ميتة .. »

ونظر الجميع إلى قمة الجبل ، وغمغم أحدهم من جديد :

ـ « لا أحد .. »

أين ذهبت الجثـة ؟ كنت اتمنى أن أجيب عن هـذا التسـاؤل لكن هذه أمـور لا تشـغلنا كثـيرًا هنـا فـى (سافارى) .

* * *

د . علاء عبد العظيم

بـورو

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

سافاري

قشعريرة

إنها القشعريرة التي تسري في عمودك الفقري .. تزحف لأعلى .. ربما لأسفل .. وبعدها تبدأ الرجفة .. إنها القشعريرة كالتي تصاحب الرعب قبل أن تعرف لرعبك سببًا .. إنها الرجفة التي تهز عالمك كله .. إنه الخوف الوحشي الأولي .. إنها الرحلة التي تعرف متى تبدأ لكنك تجهل تمامًا متى وأين تنتهي .. إنه النداء الغامض الذي تسمعه وحدك .. إنه الـ ....

د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر ٢٠٠

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم
الانفجار